المقتطف

الجزء الثامن من المجلد الثلاثين

١ اغسطس (آب) سنة ١٩٠٥ — الموافق ٢٩ جماد اول سنة ١٣٢٣

الشيخ محمد عبده

مفتي الديار المصرية

تمهيد

كأن المنايا تبتغي في خيارنا لها ترةً او تهتدي بدليلِ

شهدنا قبيل كتابة هذه السطور مشهدًا قلما يُرَى مثلهُ في هذه العاصمة تتقدمهُ كتيبة من فرنسان البوليس وشرذمة من مشاتهِ تسيران في صفين على جانبي الطريق ووراءهما نعش مجلل بشيلان الكشمير يحملهُ طلبة العلم في الجامع الازهر ووراءهُ قاضي مصر وشيخ الجامع الازهر والعلماء وقضاة المحاكم الشرعية ووراءهم خلق كثير من المشايخ والمجاورين ثم مستشارو محكمة الاستئناف الاهلية وقضاة المحاكم الابتدائية ورجال النيابة وكلهم بالاوشحة الرسمية ورجال المحاماة بطيالسهم السوداء ثم ناظر الحقانية وقائد جيش الاحتلال ومستشار الداخلية ووكيل الحقانية ووكيل حكومة السودان ومدير مصلحة الصحة واكابر ضباط الجيش المصري من الانكليز والمصريين وكبار موظفي دواوين الحكومة ووكيل محافظة مصر وحكمدارها ورئيس مجلس شورى القوانين واعضاؤُهُ وفضلاء العاصمة وادباؤُها واعيانها على اختلاف طبقاتهم وكثيرون من وجهاء الارياف . وشهد اهالي الاسكندرية مشهدًا مثلهُ في الصباح سار فيهِ نائب قائمقام الخديوي وسكرتير الوكالة البريطانية ووكلاء الداخلية والمالية والخارجية والمعارف العمومية وجمهور العلماء والوجهاء وهم يمثلون الحكومة المصرية والحكومة الانكليزية في مصر والاسكندرية والقطر المصري كلهُ . فان مفتي الديار المصرية العلاَّمة المحقق الشيخ محمد عبده قضى وهو في الاسكندرية بداءٍ اعيا الاطباءَ فحمل

منها الى العاصمة واحتفلت الحكومة المصرية بتشييع جنازتهِ احتفالاً رسميًّا قلما صار لاحد من اعاظم امرائها ووزرائها . ولقد عمَّ الاسى عليهِ الديار المصرية وفقدهُ اهل الاسلام في مشارق الارض ومغاربها واسف عليهِ غيرهم من الذين يودُّون الخير لهذه البلاد ونزع الضغائن المتولدة من اختلاف الاديان لما لهُ من الايادي البيضاء والمساعي المشكورة في انارة الاذهان ودفع الوساوس فحق ان يقال فيهِ

عمَّت فواضلهُ فعمَّ مصابهُ   فالناس فيهِ كلهم مأجورُ
والناس مأتمهم عليهِ واحد   في كل دار رنَّة وزفيرُ

وهو عصامي رقي الى هذه المنزلة بجدهِ وتوقُّد ذهنهِ وحسن نظرهِ في العواقب واقدامهِ على عظائم الامور . فانهُ جدَّ حتى اكتسب العلوم اللغوية والدينية وامتلك ناصية الانشاء ونبغ حتى صار من اكتب كتَّاب العصر ومن اعلم العلماء في العلوم اللغوية والدينية وما جرى مجراها . ثم تعلَّم اللغة الفرنسوية لكي يطَّلع على العلوم العصرية والافكار الحديثة ولاسيما ما تعلق منها بالفلسفة الاجتماعية . وترجم كتاب الفيلسوف هربرت سبنسر في التعليم لكي يستعين بآرائهِ الفلسفية على اصلاح المدارس المصرية . وكان ذكي الفؤاد بالطبع قوي الحجة حسن المحاضرة لايخاف في الحق لومة لائم ولا يتهيَّب الكبراء والعظماء لمجرَّد ما هم فيهِ او ما ادركوهُ من رفعة المقام فاستطاع ان يكون عَلَمًا يهتدي بنور علمهِ المحافظون الذين لا يروقهم الاَّ ما جرى عليهِ المتقدمون كاكثر العلماء وطلبة العلوم الدينية واللغوية ومَن جرى مجراهم لانهُ كان ثقة فيهم . وعضدًا قويًّا لابناء هذا العصر الذين استناروا بالعلوم الحديثة والآراء الجديدة . ومرشدًا صادقًا للذين يطلبون الاستنارة بها والسير في سبيلها . وسيفًا صقيلاً على اهل البدع الذين قيَّدوا ابناء المشرق بقيود تظلم العقل عن التبصر وتغلُّ الايادي عن العمل . وملجأً امينًا للذين يودُّون نزع اسباب الشقاق التي اودت بطوائف المشرق وليس لها اصل راسخ بين اصول الدين ولا هي ممَّا تقتضيهِ مطالب العمران

ثم انهُ كان عالي الهمَّة شديد الغيرة يستسهل الصعاب ويذلل المشاق سعيًا الى خير امتهِ وارتقائها فكنت تراهُ تارةً مدرّسًا يعلّم شبانها وتارةً مؤلفًا يؤلف الكتب او يشرحها وينشرها لتنوير اذهانها . وتارةً مفسرًا قواعد الدين تفسيرًا يقبلهُ العقل المستنير وتصلح بهِ شؤُون الامم وينطبق على مطالب الزمان . وتارةً منظمًا للمدارس المصرية القديمة حتى تجاري الحديثة في انتظامها وفي ما يُعلَّم فيها من العلوم القديمة والحديثة . وتارةً رئيسًا للجمعيات الخيرية الساعية

في اعانة الفقراء واصلاح شؤُونهم وتعليم ابنائهم . وتارة مقداماً للذين يشيرون على الحكومة في مجلس شوراها بفعل ما يصلح القطر وينفع اهاليهُ . وتارةً مباحثاً ومناقشاً لاقناع رفاقهِ في ذلك المجلس بالمشروعات النافعة للبلاد واهلها وجمع كلمتهم على تأييد الحكومة وشد ازرها على الذين يعارضونها في مقاصدها إما لغرض في نفوسهم او لأن وجه النفع الذي تتوخاهُ لم ينجلِ لهم . وتارةً مجادلاً يدافع عن الدين بادلّة مأخوذة من علوم المتأخرين التي جدَّت بعد عهد المتقدمين . وتارةً مبيّناً بالحجج القاطعة ان الدين لا يمنع الارتقاء والاخذ باسباب العمران بل يحث عليهما ومظهرًا الشوائب والبدع التي دخلت فيهِ فاضرت اهلهُ وهي ليست منهُ في شيءٍ بل يتبرأ منها وينهى عنها . وتارة صانع خير وفاعل بر وجامع اموال لاغاثة المنكوبين بالنيران والاوبئة وغيرها من الرزايا يقصد المصابين بنفسهِ ويوزع عليهم الاموال بيدهِ . وتارةً متصدرًا في الاندية العلمية والحفلات الادبيَّة يبيّن مزايا العلم وفوائد التربية ويشرح الاسباب التي رقّت اهالي اوربا واوصلتهم الى ما وصلوا اليهِ من العزة والمنعة وينعش الافئدة بذكر ما كان عليهِ اسلاف الشرقيين وما يمكن ان يصيروا هم اليهِ اذا تعاونوا وتناصروا واخذوا باسباب الارتقاء . وتارةً جالساً في مجالس الانس والصفاء يزيل الوحشة والجفاء من بين الوطنيين والاجانب ويؤَلف بين الجماعات والمعاشر المختلفة في المبادىء والآراء والعادات . وتارةً قارعًا باب ولاة الامور لاعانة طلبة العلم وبذل المال لاصلاح الجامع الازهر وما اشبه من الغايات الحميدة . وتارةً جالساً في بيتهِ وحولهُ جماعة كبيرة من تلامذتهِ ومريديهِ وهو يطرفهم بالاحاديث المفيدة ويشرح لهم بعض ما عثر عليهِ حديثًا في كتب المتقدمين او المتاخرين — كل ذلك بعد قيامهِ بحقوق وظيفة الافتاء وادارتهِ لشؤُونها وقضائهِ لمهامها على ما بها من المصاعب والمتاعب

وكتبهُ الى اصدقائهِ والذين يدعونهُ الى الحفلات العمومية ويمنعهُ انحراف صحتهِ او كثرة اشغالهِ عن اجابة طلبهم آيةٌ في البلاغة وحسن السبك حتى لقد يحار من يدعوهُ بين ان يتمتع بمشاهدتهِ او ينال منهُ كتاباً بخطهِ يحفظهُ تذكارًا لهُ ويتلوهُ على الحضور فتسكرهم طلاوتهُ . وكذلك تقاريظهُ للكتب فانها كانت تدعو الى ترويجها لثقة الناس بعلمهِ وبانهُ لا يكيل الكلام جزافًا

ولم تكن مشاغلهُ الكثيرة لتقعدهُ عن السعي في مصالح الناس فيقصدهُ ذوو الحاجات وهو لا يدَّخر وسعاً في اغاثتهم بما في الامكان اذا تبيَّن انهم محقُّون في طلبهم . وكان مسموع الكلمة مقبول الشفاعة فكثر مريدوهُ على شدَّة المقاومة لهُ من الذين كانوا يغارون منهُ

ولقد لقي كثيرين من اعاظم الرجال في ممالك اوربا وفي بلاد الشام وتونس والجزائر وحادث اكبر فلاسفة العصر ووقف على آرائهم واوقفهم على ما يجهلونهُ من احوال الامم الشرقية فزاد اختبارًا وحُنكةً . واستفاد من ملازمة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وقرأ عليهِ دروس الحكمة الشرقية والاصول والمنطق وجاراهُ في المجاهرة بما يعتقدهُ صوابًا ولو خالف فيهِ الجمهور

وكان في قلب بلاد المشرق بلاد الخوف والرهبة والاستبداد جريء الفؤاد حر الضمير يجاهر برأيهِ ويثبت عليهِ ولا يخشى بأس متسلط ولا يهاب صولة كبير . وقد جرَّ عليهِ ثباتهُ على رأيهِ وجرأتهُ في نصرة الحق وقلة خوفهِ ورهبتهِ اهوالاً كثيرة ومحنًا عديدة ولكن لما أُبدل الاستبداد بالدستور في هذا القطر اوصلتهُ هذه المزايا الى ما وصل اليهِ من المقام والسطوة وصيرتهُ في اعتبار الجمهور الخصم العنيد للاقوياء والناصر الشديد للضعفاء والركن الوطيد للاحرار والعضد القوي للساعين في تنوير العقول والافكار

هذه بعض مزاياهُ واذا اضفنا اليها سعيهُ في سبيل الاصلاح وميلهُ الى فريق المحافظين حتى يجاري فريق المتقدمين حكمنا ان البلاد الاسلامية فقدت بفقدهِ عالمًا من اكبر علمائها ومصلحًا من اعظم رجال الاصلاح بين اهليها حرًّا هامًا مقدامًا قوَّالاً فعَّالاً فصابها بهِ اعظم مصاب وخسارتها اكبر خسارة فارقها الى رحمة ربهِ ولسانهُ يلهج بما في نفسهِ فنظم هذه الابيات قبيل ان تدركهُ الوفاة قال

ولست أُبالي ان يقال محمد		ابلَّ ام اكتظَّت عليهِ المآتمُ
ولكن دينًا قد اردت صلاحهُ		احاذرُ أَن تقضي عليهِ العمائمُ
وللناس آمالٌ يرجُّون نيلها		وان متُّ ماتت واضمحلت عزائمُ
فيا ربِّ ان قدرت رجعى قريبةً		الى عالم الارواح وانفضَّ خاتمُ
فبارك على الاسلام وارزقهُ مرشدًا		رشيدًا يضيء النهج والليل قاتمُ

ولسان عارفيهِ ومريديهِ وكل الذين انتفعوا بنصحهِ وارشادهِ او تمتعوا بالنفع الذي نالتهُ البلاد على يدهِ ينشدهُ قائلاً

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة		اثنى عليها السهل والاوعارُ
سلكت بك العرب السبيل الى الهدى		حتى اذا سبق الردى بك حاروا

وسنعود الى ذكر ترجمتهِ بالتفصيل بعد ان نتمكن من جمع المواد اللازمة لها

توليد الحي من الجماد

يهتم فريق من اساتذة المدرسة الجامعة في كاليفورنيا بتوليد الحي من الجماد ورئيسهم في ذلك الاستاذ جاك لوب ودليلهم التجربة والامتحان فلا يلجأُون الى قضية نظرية او حقيقة فلسفيَّة الاَّ لمساعدة التجارب العلميَّة

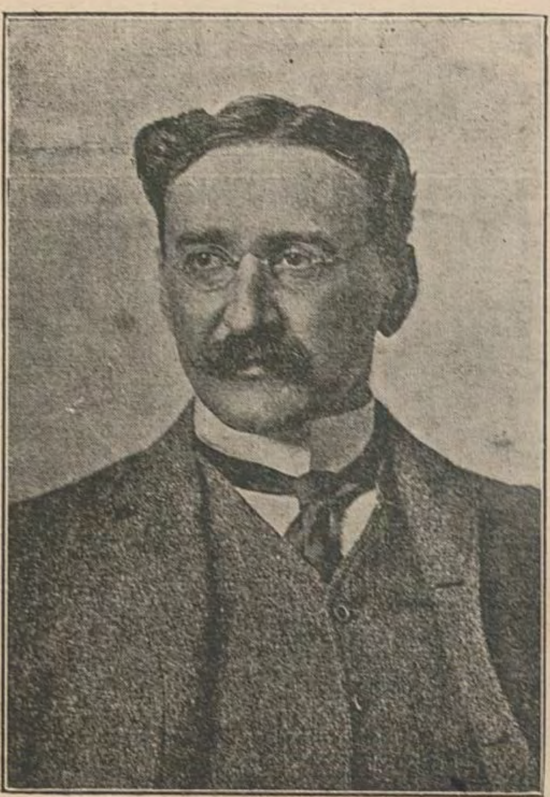

الدكتور لوب استاذ الفسيولوجيا في مدرسة شيكاغو الجامعة

والدكتور لوب كان استاذًا للفسيولوجيا في مدرسة شيكاغو الجامعة وقد تلقَّى الدروس في مدارس برلين ومونخ وستراسبرج ودعي الى مدرسة كاليفورنيا سنة ١٩٠٢ لتدريس فنّ الفسيولوجيا وقد نشر الآن نتيجة تجاربهِ وقال فيها انهُ يمكن التحكّم بظواهر الحياة وان هذا التحكُّم هو الغرض الاهم من علم البيولوجيا . والامر الذي نجح في اثباتهِ وهو من الغرابة بمكان عظيم انهُ كان يأخذ بيضًا من بيوض بعض الحيوانات البحرية ويجعلهُ يلد صغارهُ بعض

الوسائل الصناعية من غير تلقيح ثم وجد ان ماء البحر وحدهُ يكفي لجعل تلك البيوض تنمو وتتولّد الحيوانات منها ولو كان الماء خاليًا من آثار اللقاح. واوصل لقاح بعض الحيوانات البحرية الى بيوض حيوانات أُخرى فأثَّر فيها تأْثير لقاحها . ويراد الآن ان يُعلَم كم يرث الحيوان من امهِ وكم يرث من ابيهِ ولا سيما اذا كان ابوهُ مخالفًا لامهِ في الصنف او في النوع ثم البحث في تولّد الاجسام الحيَّة من غير الحيَّة . والمرجح انهُ يتعذر تحقيق هذه الامنية الاخيرة ولكن لا بدَّ من اكتشاف حقائق كثيرة مفيدة في غضون البحث عنها

شلالات فكتوريا

يذهب بعض العلماء الى ان العمران ابتدأ في قارَّة افريقة وسينتهي فيها حينما تبرد الارض وتفرغ القوى الطبيعية من كل البلدان الشمالية وتصير افريقية المنطقة المعتدلة فتستثمر خيراتها ويستخرج الفحم الحجري منها ويتحكم بما فيها من القوى المائية . وقد بدأَت تباشير ذلك من الآن فان فيها ثلاثة انهر من اكبر انهر الدنيا تخرج من اواسطها وتصب في البحار المحيطة بها فالنيل يجري شمالاً ويَصب في البحر المتوسط والزمبيسي يجري شرقًا ويصب في الاوقيانوس الهندي والكنغو يجري غربًا ويصب في الاوقيانوس الاتلنتيكي . وفيها ايضًا نهر رابع من اكبر الانهر وهو نهر النيجر لا يخرج من اواسطها بل من غربيها ويجري شرقًا ثم ينحرف جنوبًا ويصب في الاوقيانوس الاتلنتيكي ولا بدَّ من التحكُّم في هذه الانهر للري والملاحة وتوليد الكهربائية

ويمتاز نهر زمبيسي بانهُ اصغر هذه الانهر لكن فيهِ ما يُعدُّ من اعجب عجائب الدنيا وهو شلالات عظيمة لا مثيل لها في العظمة الَّا شلالات نياغرا باميركا. فان عرض شلالات نياغرا نحو ١٧٠٠ قدم وعلوها نحو ١٦٠ قدمًا واما هذه الشلالات فعرضها اكثر من خمسة آلاف قدم وارتفاعها نحو ٤٠٥ قدمًا والماء الغزير ينصب منها في هوَّة عميقة شقَّت في الصخر الاصم بفعل بركاني في العصور الغابرة فيصل الى القاع من هذا العلو الشاهق وهو يغلي ويزبد كأنهُ في مرجل عظيم قائم فوق اتون متقد ولا منفذ لهُ بعد ذلك الَّا ممر ضيق في الصخر الاصم عرضهُ نحو مئة وخمسين قدمًا فيجري فيهِ مسرعًا مزبدًا في خط متعرج متمعج مسافة ٤٥ ميلاً وارتفاع جانبيهِ اربع مئة قدم ومجراهُ هذا اعجوبة من اعاجيب الدهر مثل انحدارهِ

ومن غريب امر هذه الشلالات العظيمة ان اهالي اوربا جهلوا وجودها حتى اواسط القرن الماضي حين اكتشفها الدكتور لفنستون المرسل الشهير سنة ١٨٥٤ وسماها باسم الملكة

فكتوريا . وكان سكان البلاد يرونها من بعيد ويرون الرشاش المتصاعد عنها بقوة انحدار الماء ولا يجسرون على الدنوّ منها فلم يعلموا سبب ذلك الرشاش . وكانوا يسألون الدكتور لفنستون قائلين " أللدخان صوت عندكم " واسم الشلالات في لغتهم " موسيواتونيا " اي " الدخان العجّاج " اشارة الى رشاشها المتناثر في الفضاء والى صوتها الذي يصم الآذان

شلالات فكتوريا كما ترى من بعد وقتما يكون ماؤُها على اقلهِ

فعزم لفنستون على رؤْيتها وركب قارباً وسار بهِ اليها ولما صار على بعد خمسة اميال منها رأى الرشاش فوقها كأنهُ اعمدة دخان متصاعدة عن النار او سحب متلبدة في الفضاء. واخيراً وصل الى جزيرة عند راس الشلالات سميت باسمهِ فيما بعد فحفر الحرفين الاولين من اسمهِ في جذع شجرة هناك ولا يزالان الى اليوم . وشاهد من تلك الجزيرة انحدار الماء الى تلك الهوّة العميقة الضيقة ثم جريانهُ منها في الشق الضيق المشار اليهِ آنفاً

وقد شرعت الحكومة الانكليزية في مدّ جسر فوق نهر الزمبيسي امام الشلالات تمرُّ عليهِ

سكة الحديد التي يرام مدّها بين القاهرة ومدينة الرأس . وسيكون طول الجسر ٥٠٠ قدم وعلوّهُ ٤٠٠ قدم وهو اعلى جسر في العالم ووكلت هندستهُ الى اثنين من كبار مهندسيها . ولما كان عبور النهر من هناك مستحيلاً بسبب علو ضفتيهِ وانتصابهما وسرعة الماء كان لا بدَّ للمهندسَين من أن يدورا دورة طولها ١٠ اميال حتى يصلا من الضفة الواحدة الى الاخرى وفي ذلك ما فيهِ من اضاعة الوقت سدًى . فعمدا الى الطريقة الآتية وهي انهما علّقا حبلاً او سلكًا ثخينًا بسهم ناريٍ واطلقاهُ من ضفة الى الضفة المقابلة ثم ثبَّت العمال الذين يعملون على جانبي النهر السلك في الارض وربط المهندسان بالحبل كرسيًّا يعلّق بالسلك ويركب احدهما فيهِ فيجرُّ الى الجهة المقابلة وكان يربط بالكرسي ربطًا خشية ان تغيب عنهُ حواسهُ فيسقط في الماء

وقوة هذه الشلالات ٣٠ مليون حصان وفي النية استخدامها لاستخراج المعادن من البلاد المجاورة لها فانها تعدُّ اغنى بلدان العالم في معادنها كما فعل الاميركيون بشلالات نياغرا فانهم يحولون قوتها الى كهربائية ويستعملونها لادارة كثير من المعامل فيتعيش من ذلك ما يقرب من مليون نفس ولانارة مدينة بفلو بالانوار الكهربائية وهي على بعد ٢٥ ميلاً عنها ولادارة جميع الآلات التي فيها . وشركة نياغرا تفكر الآن في ارسال قوة الشلالات الى نيويورك وبوستن وفلادلفيا وشيكاغو وهي على بعد ٥٠٠ ميل عنها . فاذا أُرسلت قوة شلالات فكتوريا الى ٣٠٠ ميل حولها وقع ضمن تلك الدائرة مدينة بولاوايو ومناجم النحاس في باروتسيلاند وهي اعظم مناجم النحاس في الدنيا وبعض مناجم الفحم الكبيرة وستة مناجم ذهب وقد اكتشفت حديثًا مناجم حديد قرب الشلالات

ثم ان المياه المتدفقة منها تستخدم لارواء الاراضي الزراعية التي حولها . وقد تألفت شركة لاستخدام مياه الشلالات واتفقت مع شركة جنوب افريقية الانكليزية على مسح الاراضي المحيطة بها وربما انفقتا مليون جنيه للوصول الى غايتهما وقد تكفّلتا ألاَّ تشوّها منظر الشلالات الطبيعي

اما تكوُّن هذه الشلالات فمختلف فيهِ فانهُ لما اكتشفها لفنستون قال انها تكونت بفعل البراكين فانشق الصخر من ضفة النهر اليمني الى ضفتهِ اليسرى وامتدَّ الشق الى مسافة ٣٠ او ٤٠ ميلاً في التلال المجاورة . ووافقهُ جميع السياح الذين قصدوا تلك البلاد بعدهُ ولكن المستر مولينه نشر مقالة في المجلة الجغرافية قال فيها ان الهوة وما يتبعها من الشقوق تكونت من أكل الماء للصخر على مر الحقب كما هي الحال في شلالات نياغرا . وهذا لا ينفي ان يكون الشق الاول حدث بفعل بركاني ثم غار واتسع بفعل الماء

ايضاحات لُغوية

غير خافٍ ان في عبارة اللغويين غموضاً على من يمارس كتبهم من طَلبة الأدب والادباء لعهدنا . ولم أرَ من تصدَّى لانشاء رسالة تتكفل بكشف ما في المعاجم (القواميس) من الغوامض كما اني لا أعلم مدرسةً يلقى فيها درس لغويّ على كثرة المدارس في هذا العصر . وكأنما المراد بعلم اللغة عندهم حفظ شيءٍ من الغريب الذي يعثرون عليهِ إما في دواوين الشعر واما في المقامات وما اشبه مما يُكلَّف الطلبة استظهارهُ فرأَيت الحاجة ماسةً الى نشر ايضاحات تزيل ما يقع لهم من الاشكال وتسهّل عليهم طريق الوصول الى فهم المقصود ابتغاء ان تكون لمن شاء الخوض في اللغة مصباحاً منيرًا ولساناً عن وجه الصواب مبيناً فتبني على اساس البلاغة عبارتهُ . وترتوي من القاموس المحيط يراعتهُ

الايضاح الاوَّل

اعلم ان للغويين في تفسير الفعل المتعدّي بنفسهِ او بالحرف وفي تفسير مصدرهِ ومشتقاتهِ طريقتين . الاولى انهم يذكرون الفعل وما يتعلق بهِ من فاعل ومفعول ومجرور بالحرف ثم يفسرونهُ بفعل متعدٍ على حدّ قول القاموس في مادَّة (ن ض ض) نضَّ الطائر جناحيهِ : حركهما . والثانية انهم يقتصرون على ذكر الفعل والفاعل ثم يفسرونهُ بفعل آخر ويذكرون مفعولهُ وعلى هذه الطريقة مشى صاحب اللسان في مادَّة (ن ض ض) قال نضَّ الطائر حرَّك جناحيهِ ليطير . والامثلة على ذلك تكاد لا تحصى واليك منها خمسة واربعين مثالاً تنجلي بها المسئلة اتم الانجلاء

(١) قال في القاموس انتقشَ : اخرج الشوكة من رجلهِ . وفي اللسان وانتقشَ الشوكة : اخرجها من رجلهِ ومثلها عبارة الصحاح و (٢) دأَّس البائع : كتم عيب السلعة : هذه عبارة القاموس . وعبارة اللسان دلَّس عيبها كتمهُ و (٣) كمَّ الرجلَ : ردَّهُ عن حاجتهِ اشدَّ الردّ . وفي اللسان كمَّهُ عن حاجتهِ ردَّهُ عنها اشدَّ الردّ و (٤) في القاموس رزَّت الجرادة : غرزت ذنبها في الارض . وفي اللسان رزَّت الجرادةُ ذنبها في الارض : اثبتتهُ و (٥) في القاموس المحارفة المقايسة بالمحراف وفي الاساس حارفَ الجرحَ بالمحراف : قاسهُ بالمسبار حتى يعرف حدَّ غورهِ و (٦) تمشَّرَ لاهلهِ : تكسَّب شيئاً هذه عبارة القاموس وعبارة الصحاح تمشَّر لاهلهِ شيئاً : تكسبهُ و (٧) في التاج احتسى : حفر حِسياً وفي اللسان احتسى حِسياً : احتفرهُ و (٨)

تياسروا : تقاسموا بينهم لحم الميسر . وفي الاساس تياسروا الجزورَ : تقاسموها و (٩) زَبرَهُ : رماهُ بالحجارة وفي اللسان زَبرَهُ بالحجارة : رماهُ بها و (١٠) لغم البعير لغامهُ لغماً : رمى بهِ هذه عبارة اللسان وفي القاموس ولغم الجملَ كمنع : رمى بلغامهِ و (١١) وحسرَ الماءُ : نضب عن موضعهِ وفي اللسان وحسر البحر عن العراق والساحل نضب و (١٢) مرخ جسدهُ : دهنهُ بالمروخ وفي الصحاح مرخْتُ جسدي بالدهن مرْخًا ومرَّخنهُ تمريخًا وفي اللسان مرخ جسدهُ بالدهن و (١٣) أوحدَ الكلبَ بالصيد : أغراهُ بهِ هذه عبارة اللسان وعبارة القاموس اوحد الكلبَ وغيرهُ : اغراهُ و (١٤) خندقَ : حفر الخندقَ وقال ابن منظور في مادَّة (ن ج د) خندقَ الخندق : حفرهُ و (١٥) في القاموس وطمحت المرأة : جمحت وفي اللسان وطمحت المرأة على زوجها : جمحت و (١٦) في القاموس أبدَّ يدهُ : مدَّها الى الارض وفي اللسان ابدَّ يدهُ الى الارض مدَّها اليها و (١٧) مكرَ بهِ وامتكرَ : صبغ وفي القاموس مكر الثوبَ : صبغهُ بالمكر و (١٨) استفع ثيابهُ : لبسها واستفع الرجل : لبس ثوبهُ وكلتاهما مما رواهُ صاحب اللسان و (١٩) تسحَّرَ : اكل السحور وتسحَّر السحورَ : اكلهُ وكلا التعبيرين وارد في اللسان و (٢٠) استطرَ : كتب. هذه عبارة الجوهري ونصها سطر يسطر سطرًا : كتب واستطرَ مثلهُ وفي القاموس واستطرهُ : كتبهُ و (٢١) قال ابن منظور أزْفى : نقل الشيء من مكان الى آخر وقال المجد أزفاهُ : نقلهُ من مكان الى آخر و(٢٢) ازدهبَ الرجلُ : احتمل الزهبة كذا عبر المجد وقال ابن منظور إزدهبهُ احتملهُ و (٢٣) الرصينُ الحفيُّ بحاجة صاحبهِ وفلان رصين بحاجتك : حفيٌّ بها و (٢٤) وفي اللسان ترشحت الام : لحست ما على طفلها . وفي القاموس الترشح والترشيح : لحس الام ما على طفلها و (٢٥) رفعَ القومُ : اصعدوا في البلاد هذه عبارة المجد وعبارة الاساس ورفعوا في البلاد : اصعدوا و (٢٦) في الصحاح خشف يخشف بالضم خشوفًا : ذهب في الارض وفي اللسان خشفَ في الارض يخشف خشوفًا وخشفانًا : ذهب فيها و (٢٧) في القاموس أهربت الريحُ : سفت التراب وفي اللسان اهربت الريحُ ما على وجه الارض من التراب والقميم وغيرهِ : اذا سفت بهِ و (٢٨) في اللسان مشنَ ما في ضرع الناقة حلبهُ وفي القاموس مشنَ الناقة : حلب ما في ضرعها (٢٩) انتشف : شربَ النشافة وفي التاج وانتشف النشافة : شربها و (٣٠) في القاموس اقدحرَّ : تهيأ للشر . وفي اللسان اقدحرَّ للشر : تهيأ و (٣١) حقد في الامر : اسرع فيهِ وخفَّ في القيام بهِ . وحقد : خف في العمل وأسرع و(٣٢) في القاموس. أنوى : ألقى النواة . وفي اللسان أنوى النواة : القاها و (٣٣) تقبى : لبس قباءهُ وتقبى قباءهُ : لبسهُ وكلتا العبارتين عن اللسان و (٣٤) شكزَهُ : نخسهُ باصبعهِ وفي

اللسان شكزَهُ بإصبعهِ : نخسهُ و (٣٥) جرمَ الشاةَ : جزَّ صوفها وعبارة الاساس جرَمَ صوف الغنم: جزَّهُ و (٣٦) تهاكلَ القومُ : تنازعوا في الامر : وتهاكلوا في الامر : تنازعوا فيهِ. و (٣٧) قال الجوهريّ إعرَوْرَنَ الرجل : اي تهيأ للشر وفي الاساس إعرَوْرَنَ فلانٌ للشر: اشرأب لهُ . وعبارة اللسان إعرَوْرَنَ فلانٌ للشر كقولك إجثألَّ وتشذَّرَ اي تهيأ و (٣٨) التشحط الاضطراب في الدم وعبارة الجوهري تشحطَ المقتولُ بدمهِ : اضطرب فيهِ و (٣٩) قال المجد كاصَ : كعَّ عنِ الشيء وعجز وفي اللسان كاصَ عن الشيء : كعَّ عنهُ وعجز. و (٤٠) قال في اللسان عملتُ القومَ عمالتهم : أعطيتهم اياها وفي القاموس وعملَ فلاناً اعطاهُ العمالة. و (٤١) في اللسان قنا لحيتهُ بالخضاب : سوَّدها . وقنا لحيتهُ : سوَّدها بالخضاب. و (٤٢) مانَ شق الارض للزرع . ومانَ الارض : شقها للزرع . و (٤٣) في اللسان قردتُ السمنَ في السقاء : جمعتهُ وقرَدَ في السقاء : جمع السمنَ فيهِ. و (٤٤) في القاموس ماث الخبزَ في الماء : دافهُ وفي الاساس ماثَ الخبزَ : دافهُ في الماء. و (٤٥) اقتنَّ اتخذ قنًّا (اي عبدًا) وفي اللسان اقتنَّنا قنًّا : اتخذناهُ. وكفى بهذه الامثلة تاييدًا لما قلتهُ

فاعلم اولاً ان الفرقَ بين الصورتين ان الصورة التي يذكر فيها متعلق الفعل او المصدر المفسر قبل التفسير كما في قولك أنوى النواةَ : القاها وحقدَ في الامر : اسرع فيهِ هي اوضح من الصورة التي يقتصر فيها على ذكر الفعل او المصدر المفسر ويحذف المتعلق لان في العبارة دلالةً عليهِ نحو أنوَى : القى النواةَ وحقَدَ : خفَّ في العمل وأسرع

وثانيًا ان هذا التعبير اي ذكر الفعل او المصدر مجردًا عن متعلقهِ ليس مما انفرد بهِ صاحب القاموس خلافًا لما تشير اليهِ عبارة بعض منتقديهِ على ان هذا التعبير وان جاريًا على سنن البلاغة يستحسن العدل سنة مراعاةً لافهام اهل الزمان كيف لا وقد انتقدهُ جماعة ممن عاصرناهم وممن لو باحثناهم لسلَّموا قطعًا ان ذلك جارٍ على حدّ قولهم أمرَ بهِ فطُرِد اي امر بطردهِ فطُرِد فحذف المضاف استدلالاً بما بعدهُ عليهِ . وهو من التراكيب المستفصحة

وممَّا يندرج في باب ما يتعلق باختلاف التعبير مع الاتفاق في المراد مثل قولهم عَذَبة الشجر: غصنهُ . والعذَبة من الشجر: الغصن والعَذَبة : غصن الشجر و بالصورة الأولى عبَّر الجوهريّ وبالثانية عبَّر شارح القاموس وبالثالثة عبَّر صاحب الاساس. ومثل قولهم ايضاً السفواء : البغلة الخفيفة السريعة وبَغْلَة سفْواء : خفيفةٌ سريعةٌ. ولقد رأيت من ينتقد على من يعبّر بالصورة الثالثة فدققت النظر في انتقادهِ فلم أرَهُ الاَّ شاهدًا على قصور فهمهِ وضيق ذرعهِ ولكني اشكر ذلك المنتقد اذ لولا انتقادهُ ما انتبهت الى حلّ ما اشكل عليهِ ومنهم من

ينتقد على من يقول مثلاً المسهَّم : البرد المخطَّط ويقول وجه التعبير ان يقول المسهم من البرود : المخطط . وهو كالانتقاد الاول في الدلالة على قلة بضاعة المنتقد

الايضاح الثاني

ان اللُغويين يضيفون الفعل الى ما ليس هو بمختصٍّ بهِ فيتوهم من يراجع كتبهم ان ذلك دليل على اختصاص الفعل بالمضاف اليهِ مع ان الغرض من اضافة الفعل الى مثلهِ انما هو ان يكون مثالاً لا قيدًا . وازالةً لهذا الاشكال ودفعًا لهذا الايهام أُورد لك ما شاء الله من الامثلة التي تدلُّ على ان ما اضيف اليهِ الفعل مثالٌ لا قيدٌ (١) قال المجد تقاربت ابلهُ : قلَّت وأَدبرت وفي اللسان يقال للشيء اذا ولَّى وأَدبر تقارب و (٢) قال ابن منظور أَدا السبع للغزال ادْوًا : ختلهُ ليأْكلهُ . وأَدَوْتُ لهُ وأَدَوْتهُ كذلك و (٣) في القاموس حدَا الليل النهارَ : تبعهُ وزاد في التاج وكذا كلُّ شيء فالليل هنا مثالٌ لا قيد و (٤) قال في اللسان نَعِجَ البعيرُ : سمن ونعجتَ يا فلان بعد ما رأَيتك كالسعف اليابس . اراد سمنت وصلحت و (٥) قال ابن منظور أَعاف القوم إِعافةً : عافت إِبلهم الماءَ فلم تشربهُ . وقال المجد عافت دوابُّهم الماءَ فلم تشربهُ و (٦) في اللسان عيَّل دابَّتهُ : اهملها في المفازة وسيَّبها وفي القاموس عيَّل فرسهُ : سيَّبهُ في المفازة و (٧) فجا الشيءَ : فتحهُ . وقال شمر فجا بابهُ يفجوهُ : فتحهُ بلغة طيءٍ و (٨) في اللسان أَمخَّت الشاة : سمنت . وامخَّت الدابة والشاة والإِبل : سمنت و (٩) في المصباح إِنكشبَ الشيءُ : اجتمع وفي القاموس إِنكشبَ الرملُ و (١٠) في القاموس كثَّ الشعر : كثف وفي اللسان كثَّ الشيءُ : اي كثف وكثَّت اللحية الخ و (١١) في اللسان تكارس الشيءُ : تراكم وتلازب وفي القاموس تكارس البناءُ و (١٢) في اللسان نَتا الشيءُ نَتوًا ونتوًّا : ورم وفي القاموس نَتا العضو . و (١٣) قال المجد ضرجَ الثوبَ : صبغهُ بالحمرة وفي اللسان ضرجَ الثوبَ وغيرهُ : لطخهُ بالدم ونحوهِ وقد يكون بالصفرة و (١٤) قال المجد شردَ البعيرُ وقال ابن منظور شرد البعير والدابَّة . وقال الزمخشري جشرَ الدوابَّ وقال صاحب القاموس جشرَ الخيلَ : اخرجها للرعي و (١٥) في القاموس حسرَ البعيرَ : ساقهُ حتى اعياهُ وفي اللسان حسرتُ الدابة اذا سيَّرتها حتى ينقطع سيرها و (١٦) في التاج صفا القدرَ : اخذ صفوهُ و (١٧) في اللسان أَذلقَ السيفَ : اخرجهُ وفي الحديث أَدلقني المطر اي اخرجني (عن التاج) و (١٨) في الاساس تراغبَ الوادي : اتَّسع وفي اللسان تراغبَ المكانُ : اتَّسع و (١٩) في الاساس راعت الحنطة واراعت : زكَتْ وفي المصباح راعت الحنطة وغيرُها : زكتْ و (٢٠) في الصحاح زكتَ القربة وزكَّتها تزكيتًا : ملأَها وفي اللسان زكتَ الاناءَ زكتًا

وزكتهُ تزكيتاً كلاهما ملأهُ و (٢١) في اللسان تنشَّط الارضَ : قطعها وفي الاساس تنشَّط الطريق و (٢٢) نهمَ الابلَ : زجرها ونهمني فلانٌ : زجرني و (٢٣) في اللسان طفس الرجلُ : مات وطفسَ البرذون : مات و (٢٤) إنتمَى البازي وتنمَّى : ارتفع من موضعهِ الى موضع آخر وفي الاساس نمَى الشيءُ وتنمَّي : ارتفع و (٢٥) في القاموس ناضَ الحبلُ : تذبذب وفي اللسان ناضَ الشيءُ و (٢٦) نامَ الرجلُ : مات وفي القاموس نامت الشاةُ : ماتت و (٢٧) في القاموس هرِعَ الدمُ : سال وفي اللسان هرعَ الشيءُ و (٢٨) في اللسان قَنقثَ الشيءَ : اراد انتزاعهُ وفي القاموس قنقثَ الوتدَ حرَّكهُ لينزعهُ و (٢٩) في الاساس هَفَّت الابلُ هفيفاً : اسرعت وفي القاموس هفَّ : اسرع و (٣٠) هكعت البقرةُ تحت السدْرة وهكعت البقرة تحت الشجر و (٣١) إهتوَر الرجلُ : هلك وفي اللسان إهتورَ الشيءُ : هلك و (٣٢) فضَّ الدموعَ : صبَّها وفي اللسان فضَّ الماء و (٣٣) في الصحاح الفرس نَقِص الاكامَ : اي تدقّها وفي الاساس وَقصت الدوابُ الاكامَ . كسرت روُوسها

و (٣٤) في القاموس واشكَ الرجلُ : اسرع السير وفي الاساس ناقة مواشكة وقد واشكت في سيرها مواشكةً ووِشاكاً و (٣٥) حبَّر الشعرَ والكلام : حسَّنهُ وفي اللسان وتحبير الخطّ والشعر وغيرهما : تحسينهُ و (٣٦) في القاموس وَثرَ الفراشَ : وطَّأهُ . وفي اللسان وَثرَ الشيءَ وطَّأهُ و (٣٧) في اللسان وصمَ العودَ وفي الاساس وفي العود والعظم وَصْم اي صدْعٌ و (٣٨) في الاساس وغلَ في الشجر وغولاً : توارى فيهِ وفي اللسان الوغول : الدخول في الشيء و (٣٩) في اللسان أوذمَ الشيءَ : اوجبهُ وفي القاموس أوذم الحجَّ و (٤٠) وأجذمَ البعيرُ في سيرهِ : اسرع وفي اللسان أجذمَ الفرسُ وغيرهُ ممَّا يعدو : اشتدَّ عدوهُ و (٤١) في اللسان وقِعَ الرجلُ والفرس يوقع وَقعاً فهو وَقِع : حفي من الحجارة او الشوك واشتكى لحم قدَميهِ . وفيهِ ايضاً وقِعت الدابة : اذا اصابها داءٌ ووجع في حافرها من وطْء على غِلظ . والغلظ هو الذي يبري حدَّ نسورها

قلت لما كان المثال يوهم انهُ قيد كان الأَولى بل كان الواجب مراعاةً لأَفهام اهل هذا الزمان العدول عنهُ فمكان أُوذمَ الحجَّ تقول اوذمَ الشيءَ ومكان وقصت الفرسُ الإكامَ اذا دقتها تقول وقصت الدوابُ وتقول حذلَمَ الاناء بدل حذلَمَ السقاء وطائر اودع مكان حمام أُودع وهلمَّ جرًّا واذا اردت الاتساع تأْتي بجملة تكون بمنزلة مثال يتبين منهُ وجه الاستعمال كما تتبين القاعدة بالمثال في كتب العربية مثلاً فتدبَّر

سعيد الخوري الشرتوني

التهذيب

تابع ما قبلهُ

فرغنا من الكلام في ما يتعلق بتهذيب الجسد فنشرع الآن في القسم الثاني من التهذيب وهو تهذيب العقل . يراد بالعقل قوة في الانسان تُدرِك بالحواس الظاهرة ما هو خارج وتعلم وتوءلف الصور العقلية وتذكر وتفعل وتشعر بوجدانها . وكل هذه الصفات خاصَّة بالحيوان وفاصلة لهُ عن النبات الذي ليس فيهِ شيءٌ من ذلك . ويتميز الانسان عن غيرهِ من الحيوان بقوة النُّطق فهو الحيوان الناطق وهي الحيوانات البكم. وهذه القوة الناطقة هي ما رقَّى الانسان في العلم والمعرفة مما اكتسبهُ من جنسهِ وجعلهُ في رتبة عالية منفردة حتى صحَّ فيهِ قول هملتون الفيلسوف لا شيءَ عظيم في الدنيا الاَّ الانسان ولا شيءَ عظيم في الانسان الاَّ العقل ولما كان استاذًا لعلم ما وراء الطبيعة في كلية ادنبرج كتبها بحروف كبيرة فوق منبر خطابتهِ ليراها الطلبة ابدًا ويذكروا ما للعقل من المكانة في الدنيا وفيهم وما لتهذيبهِ من عظيم الفائدة

قلنا ان قوة النطق الخاصة بالانسان هي المصدر الذي ينشأُ منهُ كثير من المعارف التي يكتسبها من الحديث مع اهلهِ ورفقائهِ فهو يتعلَّم منهم في اول الامر اسماء الاشياء ثم صفاتها ثم علاقة العلَّة بالمعلول الى غير ذلك مما يجعلهُ كفوءًا للتفكُّر في الامور والحكم فيها والعمل بمقتضاها فيستقلُّ برأيهِ و يصير حرًّا في سبيل الحياة . وعلى ذلك كان كثير مما يتوصَّل اليهِ من هذا القبيل عائدًا الى صفة الذين يألَفهم مدة الصّبوة والشباب فترى الملوك والعظماء يحيطون اولادهم بمن يأخذون عنهم العلم والظرف في الكلام . وهو ما نراهُ ايضًا في الاقوام الذين لم يجاوزوا هذا الحد في اكتساب المعارف فيجلس شبان البادية وهنود اميركا بمحضر كبارهم صامتين يسمعون كلام الحكمة التي بلغها اولئك الشيوخ من الخبرة بالناس وحوادث الايام ويتعلمون منهم شيئًا كثيرًا ينفعهم في ما امامهم من الحياة

وكما ان قوة النطق اساس لكل ما رقَّى الانسان الى منزلة عظيمة في العالم فاستنباط فنّ الكتابة لم يكن اقلّ منها شأنًا في رفعهِ الى رتبة اسمى في مدار العقل . لان الكتب عبارة عن تسجيل ما حصَّلهُ الجيل الواحد من المعرفة لمنفعة الجيل التابع حتى انهُ مع توالي الاجيال اجتمعت لنا كنوز من الحكمة لا نعرف لها عددًا او ثمنًا فهي لدينا الان ولكل من يطلبها تركةٌ ورثناها من سلفٍ لم يورث شيئًا يضاهيها . وكان فنّ الكتابة في اول الامر عند المصريين القدماء على غاية ما يكون من البساطة لانهُ لم يتجاوز صورة الشيء لاسمهِ كصورة

الرجل لاسم الرجل وصورة الاسد لكلمة الاسد ثم انتقلوا خطوة نحو الابجدية بان جعلوا صورة الماء عبارةً عن حرف الميم لانهُ اول حرف يُلفظ فيهِ . واول عهد لهذه الكتابة المعروفة بالميروغلفية غامض ربما استقصي الى اكثر من خمسة آلاف سنة قبل التاريخ المسيحي . وبعد ذلك اخذوا عنها ما يسهل كتابتها فاقتضبوها حتى صارت حروفًا على نوعين احدهما للكهنة والاخر للعامة وبقي الامر كذلك الى ما بعد المسيح . واما الاشوريون المعاصرون للمصريين في القدَم والتاريخ فكانت كتابتهم في اول الامر بتصوير الاشياء التي ارادوا ذكرها كما كان عند المصريين ثم نقلوها الى الحروف المعروفة بالاسفينية او المسمارية التي اقدمها منقوش على ختم للملك سرغون قيل انهُ كان منذ ٣٧٥٤ سنة ق . م . وكان المصريون ينقشون على الصخور ما ارادوهُ او يكتبون على قراطيس مصنوعة من ساق البَرْدِي وهو البابيروس الذي اخذ عنهُ الافرنج كلمة القرطاس بلغتهم وكانت كتابة الاشوريين غالبًا على اللبن او الاجر الذي بقي منهُ الى الآن عدد لا يحصى مجموع في دوُرْ العاديَّات اي الآثار القديمة

ولما بلغت اللغة منزلة الكتابة قامت المدارس لتعليمها وتدريس مبادىء العلم البسيطة . ثم لما ارتقى شأن العمران والفنون ارتقى شأن المدارس ايضًا حتى صار عدد الكليات منها في مصر اربع تربّى فيها اولاد الملوك والامراء والاغنياء وقيل موسى الذي تبنَّتهُ ابنة فرعون وقصدها علماء اليونانيين كافلاطون الفيلسوف وزنفون المؤرخ لينتفعوا بما كان يلقيهِ الكهنة من الدروس على الطلبة . فقامت الصنائع وشادوا الاهرام الراسخة الى الان كما كانت منذ الوف السنين والهيا كل العظيمة كهيل رامون را في الاقصر الذي قال فيهِ احد كبار علماء هذا الزمان انهُ لم يُشد مثلهُ ابدًا شيء عظيم لعبادة الله والمدافن العجيبة التي تخترق بطون التلال الى مسافة مئات من الاقدام وفيها من زخرفة التصوير والنقش ما يحيّر الالباب . وقد وقفتُ عندها مندهشًا كغيري من السياح الذين اتوها من اباعد الارض ليروا ما فيها من قدم الزمان ومتانة البناء وجمال الصناعة وما اقتضتهُ من ارتقاء العلوم الدقيقة كالحساب والهندسة والطبيعيات . وكان اكثر العلم والتعليم في تلك الاجيال القديمة الخالية محصورًا في الكهنة على طبقاتهم كما انحصر في القرون المتوسطة في مشايخ الاسلام وخدمة الدين المسيحي . واما حروف الكتابة المصطلح عليها الان فذهب بعض المحققين الى ان اكثرها مأخوذ عن الفينيقيين فحملوها في اسفارهم البحرية الى اماكن بعيدة . فاذا صحَّ ذلك حقَّ لكثيرين منكم الافتخار فانكم من نسل قوم سادوا البحر والتجارة زمنًا طويلاً قبل التاريخ المسيحي ومملكتهم الصغيرة لا تتجاوز الشطوط الواقعة بين طرطوس وارواد شمالاً وصور جنوبًا فكانت بيروت من

مدنهم القليلة العدد العظيمة الشأن في فنّ الابحار وفي الصنائع والتجارة والغنى الذي لم يكن لهُ مثيل في ذلك الزمان

وكما نشأ من قوة النطق في الانسان فن الكتابة الذي سجل علوم الاولين والاخرين واذخرها وصانها من البلاء المشار اليهِ في المثل السائر كل علم ليس في القرطاس ضاع هكذا كانت هذه الصناعة مرقاةً لما يمكن الانسان ان يرتقي اليهِ من العلم والتهذيب . وهما شيئان الاول اكساب العقل المعارف والثاني تمرينهُ وتقويتهُ ليصير قادرًا على حصر القوة الفاكرة في ما توجههُ الارادة اليهِ لتتبصَّر بهِ من جهاتهِ المختلفة وتدركهُ حق الادراك وتحكم فيهِ حكمًا صائبًا . فترون مما تقدم انهُ لايختلف عن تهذيب الجسد الاَّ في الغرض فانهُ ينظر في الواحد الى اعمال جسدية غرضها الصحة او شيءٍ آخر من متعلقات الحياة وينظر في الثاني الى علم يكتسبهُ الانسان ويستطيع بهِ اتقان العمل في ما يختارهُ من المهنة مهما كانت

وينال التمرين العقلي عادةً في المدارس ولكنهُ لاينحصر فيها لان بعض الاولاد والشبان يتلقون العلم في بيوتهم من معلمين يتفرغون لهم وبعضهم لا يتيسر لهُ المدرسة فيقرأُ لنفسهِ او على معلمٍ خاص وبعضهم لا يكتفي بما حصلهُ في المدارس فيطلب زيادة العلم باستمرارهِ على مطالعة الكتب الحديثة او التجول في البلاد البعيدة وتعهد مدارسها الشهيرة وحضور خطب كبار علمائها . ولكن الغالب والافضل في طلب العلم هو التربية المدرسية التي سير الدروس والعلوم فيها على شكل منتظم متتابع بادارة معلمين ينتخبون لما فيهم من الاهلية والخبرة في صناعة التعليم . وهناك فائدة اخرى كبيرة للمدرسة وهي ما يتولد في الشاب من الحماسة والغيرة والجد في المنافسة الجارية ابدًا بين الطلبة في دروسهم والعابهم

وللمدارس انواع يتدرَّج الطالب فيها من الادنى الى الاعلى ويصح ان تقسم الى ثلاث رتب كبرى . الاولى الابتدائية ويقال لها البسيطة ايضًا وهي ما يتعلم الولد فيها القراءة والكتابة ومبادىء الحساب والجغرافية والتاريخ . ويجبر الاولاد في بعض البلدان على ملازمتها في السنة السابعة من العمر الى السنة الثانية عشرة حتى صار فيها عدد الذين لا يحسنون القراءة قليلاً جدًّا وهو مما ترتقي بهِ الامة في العمران والثروة وراحة المعيشة حتى للفقراء . ومن المعلوم ان الذي لايتعلم القراءة في صغر السن يندر ان يتعلمها بعد ذلك وان الذي يستطيع مطالعة الكتب والجرائد اقدر غالبًا في حرفتهِ من رفيقهِ الجاهل واذا جدَّ فربما بلغ من العلم ما يمكنهُ من مجالسة العلماء والانتفاع بهم او ان يعد منهم

والرتبة الثانية من المدارس تسمى بالعالية وهي المعروفة عند المانيين بالجمناسيا التي يشب

فيها الولد الى السنة الثامنة عشرة او العشرين من العمر . وافضلها مقسوم الى شطرين احدها لطلبة العلوم الحديثة في ما ينفعهُ من المعارف والتهذيب للمقام المعتبر بين الناس او للتجارة وغيرها من ابواب كسب الرزق . واخص دروس هذا الشطر اتقان ما بدأ بهِ الطالب في المدرسة البسيطة من الجغرافية والحساب والتاريخ والشروع في الجبر والهندسة والمساحة وغيرها من الرياضيات والفلسفة الطبيعية والانشاء وبعض اللغات الحديثة ويضاف اليها في جميع المدارس الاوربية والامركانية اللغة اللاتينية لانها قاعدة للغاتهم والمنشأ الاصلي للكثير من كلماتهم ولا سيما الحديثة العلمية منها . ولما كان درس بعض اللغات الافرنجية مفروضًا الآن في المدارس العربية فربما كان تدريس هذه اللغة فيها من الواجب ايضًا . واما الشطر الثاني من هذه الرتبة فهو لطلبة الرياضيات العالية والفلسفة الطبيعية واللاتينية واليونانية من الذين يستعدون لدخول الكلية ومنهم من يتهيأ لامتحان المناظرة في خدمة الدولة ومنهم لما يليق بمقامهِ في الهيئة الاجتماعية وبين كبار قومهِ

والرتبة الثالثة هي المعروفة بالجامعة او الكلية . ويتبيَّن لكم من اسمها ان القصد منها هو اعلى ما يطلبهُ الشاب في الفلسفة الخاصَّة بما وراء الطبيعة وفي ما وصل الينا من افضل كتب القدماء من اليونانيين والرومانيين في الفلسفة والشعر والرواية والتاريخ والمهن العلمية كعلم الطبّ للاطباء وعلم اللاهوت لخدمة الدين وعلم الحقوق لاهل الشرع . غير ان كثيرين من طلبتها يقصدون فيها غاية ما يمكن تحصيلهُ في المدارس من العلم والتهذيب العقلي حبًّا بهما او لخدمة الوطن في مجالس الامة وتولي السياسة والاحكام في بلادهم ومستعمراتها وقد سمعنا او رأينا بعضهم فالفيناهم افاضل عظامًا في جودة العقل وكثرة المعارف وحسن التدبير ولم يكونوا على شيء من ذلك لولا دروسهم الطويلة في احسن معاهد العلم . ولهذه الرتبة وحدها الحقّ في منح الالقاب المدرسية التي لها شأن عظيم عند الاقوام المتمدنين لانها تميّز من ينالها بالشهادة لما قضاهُ من جدّ الايام والليالي في طلب العلم . وهذه الالقاب هي البكلوريوس والمعلم والدكتور في كل من اقسام العلوم والفلسفة والطب واللاهوت تُعطى مكتوبةً للطلبة بعد درس سنين معلومة وامتحان خاصّ . وهي تمنح في حفلات مشهودة وربما لم يكن للشاب ولاهلهِ ساعة ابهج من تلك الساعة التي فيها يدخل المحفل لابسًا الثوب الخاصّ بلقبهِ ومدرستهِ (1) وحاملاً شهادتهُ بيدهِ . ولهذه المدارس ايضًا ان تمنح القابًا اكراميًّا لمن لم يكن من طلبتها

---

(1) الاثواب المدرسية قديمة العهد في التاريخ منها للطلبة ومنها لذوي الالقاب وكان الطيلسان لعلماء الاسلام من هذا القبيل

اذا اشتهر في بحث علم عظيم او في تأليف كتب لها المقام الاول في الفضل او في فن او عمل كبير مذكور . وقلما نبغ احد في شيء من ذلك وشاع صيتهُ الاَّ اكرمتهُ المدارس كما اكرمهُ الجمهور ولكن العظيمة منها ضنينة بالقابها الاكرامية الاَّ على نوادر الرجال

هذا شأن المدارس في ايامنا وهو ما وصل الينا من زمن النهضة العلمية التي بدأَت في اوائل القرن السادس عشر وارتقت الى حالتها الحاضرة بعد الخبرة الطويلة . واما القول انها السبيل الوحيد الى اكتساب العلم وتهذيب العقل ففيهِ نظر لان كبار العلماء والمصنفين من اليونانيين والرومانيين والعرب لم تكن لهم هذه الوسائل الحديثة . فمنهم هوميروس الذي لا يزال نشيدهُ التاريخي في حرب طروادة قدوة لشعراء اوربا الى الآن وقد مرَّ ثلاثة آلاف سنة لعهدهِ . ومنهم افلاطون الذي نبغ في القرن الرابع قبل التاريخ المسيحي ويقرأ الطلبة الآن كتبهُ في كل المدارس العالية بلغتها الاصلية لما فيها من المسائل العويصة التي اذا خوَّض العقل فيها تمرَّن واشتدَّ . ومنهم اقليدس الذي وضع كتبهُ في الهندسة في القرن الثالث ق . م وهم يعلمونها الآن بنفس عبارتها بلا تغيير او تبديل . وكثيرون غيرهم كتبوا التاريخ والروايات والشعر . ولما قامت حديثًا في كلية اكسفورد مسئلة الغاء اللغة اليونانية من وجه كونها جبرية على كل الطلبة احتجوا بوجوب ابقائها لما في بنائها وكتبها من الفضل الذي لا يستغنى عنهُ في اجهاد العقل وتقويتهِ فهي ثابتة الى الان لم يحكم بابطالها . واما العرب فهم الذين وضعوا علم الجبر ورقَّوا ما سلف من الحساب والهيئة على انهم لم يقرأوا الاَّ بعض الكتب القديمة المعوَّل عليها في الفلسفة والهندسة والطب التي ترجمها علماء النساطرة في زمن الدولة العباسية فاخذوا عنها كثيرًا من العلم وشادوا المدارس في كل اقطار المملكة وتقاطر الى ما كان منها في الاندلس شبان اوربا ليدرسوا فيها العلوم ولاسيما الطب . وقام منهم علماء كبار كالشيخ الرئيس ابن سينا في الطب الذي طُبع كتابهُ المعروف بالقانون في رومية سنة ١٥٩٣ وتُرجم الى اللاتينية التي كانت حينئذٍ لغة المدارس والطلبة وبقي زمانًا طويلاً المعوَّل عليهِ في هذا الفن . ومنهم ابن رشد في الفلسفة وابن خلدون في التاريخ والحريري في اللغة والانشاء والمتنبي والمعرّي في الشعر وكثيرون غيرهم من الرتبة الاولى في القوة العاقلة. وربما لم يكن التعمُّق في درس أَلفيَّة ابن مالك وشرحها لا بن عقيل او الفقه الاسلامي وغيرهما من العلوم العربية اقلَّ عملاً في تهذيب العقل مما يُحصَّل من درس هندسة اقليدس او فلسفة افلاطون او اللغات القديمة وآدابها

ولكن الزمان قد تغيَّر وتغيَّرنا نحن معهُ ولم يبقَ ريب في ان العلوم الحديثة ومدارسها

قد رفعت شان الامم الحاضرة في العمران . وقد كان لنا في هذه الايام شاهد على ذلك لا يُفحَم في الامة اليابانية التي بلغ خبرها الآن اقاصي المسكونة . فانها استفاقت فجأة منذ خمس وثلاثين سنة فقط من غفلة قرون لا تحصى واخذت تبحث في ما يكون بهِ اصلاح امرها فارسلت وفوداً من خيار رجالها الى الممالك المشهورة في العلم والتمدن وفرَّقت نخبة شبانها ليطلبوا العلم في افضل مدارس المانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى واميركا وفي هذه السنة نالت سيدة يابانية اسمها تادا يوراتا الدكتورية في الطب من مدرسة ماربرج الالمانية وهي اول امرأة نالتها من تلك المدرسة الكلية على ما هي عليهِ من التشديد في امر الدروس والامتحانات . وما لبثوا ان اخذوا عنهم غاية ما بلغوهُ من استقامة الاحكام وحرية الافراد وارتقاء التربية المدرسية وانتشارها بين العامة والخاصة وجودة الصنائع والفنون ثم لم يُعلم من امرهم اكثر من ذلك الى ان حاربوا اهل الصين ثم الحرب الهائلة القائمة الآن بينهم وبين دولة عظيمة هي روسيا فادهشوا العالم اجمع بما اظهروهُ من حسن السياسة والتدبير والبسالة والاقدام وفن الحروب براً وبحراً ومراعاة جانب الانسانية في معاملة الاسرى والجرحى واحترام الحقوق وصاروا في الرتبة الاولى من رتب الدول العظيمة . وكان في كل ذلك صوت صارخ لاهل الارض جميعاً ان يستيقظوا ويعلموا قَدْر المدارس والعلم في ما مضى وحضر وسيأتي من تاريخ الجنس البشري

وهو صوت هاتف اليكم ايضاً ايها الشبان لتنتبهوا الى ما انتم عليهِ اليوم والى ما تكونون عليهِ غداً . فان انتهزتم الفرصة التي أُنعِم عليكم بها وجددتم في دروسكم واحرزتم كل خطوة ومثالة ومطلب حتى يتسهَّل لكم التدرُّج الى ما بعدها وانكببتم على القراءة والكلام والإنشاء واتخذتم مهنةً تُتقنونها وتزيدون انفسكم علماً فيها مدى الحياة واقلعتم عن الكسل والتواني وعن كل عادة تنهك قواكم وتشتت افكاركم الى ما لا نفع منهُ — كان نجاحكم الحاضر والمستقبل في تحصيل العلم من الامور التي لا ريب فيها وان لم تفعلوا صحَّ فيكم قول الشاعر

ومن رامَ العلومَ بغيرِ درسٍ   سيُدرِكُها اذا شابَ الغُرابُ

لما فرغنا من الكلام في تهذيب الجسد وتهذيب العقل وصلنا الى القسم الثالث الاخير من هذا البحث وهو تهذيب النفس اي طبعها على كل خلق كريم . فهو جل الغرض المقصود في مدارس هذا العصر اذ ما الفائدة من كثرة العلم وذكاء العقل اذا خرج الشاب منها قبيح الصفات شرساً معجباً بنفسهِ مؤذياً للناس . ويراد بالنفس الشيء الذي يشير اليهِ كل احد بقولهِ انا . قال ابو البقاء في كلياتهِ للانسان نفسان حيوانية تموت عند موت الجسد وروحانية لا تموت وهي ما يفهم ويعقل ويميز . وتعريفها عند جمهور الحدثاء انها الجوهر الروحاني في

الانسان العاقل الخالد المسأول في حكم الله الادبي . وهي التي يتميز الانسان بها عن الحيوان الابكم لا من حيث قوة النطق فقط وارتقاء الصفات والقوى ارتقاء عظيمًا يجعلهُ في منزلة معتزلة عنهُ ولكن على الخصوص في موهبة التمييز بين الحلال والحرام فهو الحد الحاد الفاصل بينهما . وقد اشار اليها الرئيس ابن سينا في ارجوزتهِ المعروفة ألَّتي مطلعها

هبطتْ اليك من المحل الارفعِ   ورقاء ذات تعزُّزٍ وتمنعِ

هذا ولما كانت على كل ما ذكر من المقام الرفيع في الانسان وفي العالم رأينا حالاً ما لتهذيب اخلاقها الادبية من القدر العظيم وهو في الجملة الابتعاد عن الاخلاق الذميمة والاتصاف بالاخلاق الممدوحة الكريمة و يقال لهُ عند بعضهم علم السلوك . وساذكر لكم الآن اخصها

(١) الاقدام على الامور والشجاعة فيها والملازمة لها والتعويل على النفس . وليس بدونها فلاح في الحياة فان الكسلان والجبان والمتقلب المتردد ومن يتوكأ ابدًا على غيرهِ لا نصيب لهُ في هذه الدنيا الاَّ ما كان يسيرًا حقيرًا . فانتصبوا واقتحموا صعاب المطالب ولا تهابوا شيئًا الاَّ الكذب والحرام . وانتهزوا الفرصة متى جاءت فانها كما قال فيها شكسبير مدٌّ اذا انتهز حمل الى السعد واذا اهمل كان كل سفر الحياة ضحولاً وشقاء . ومن اقوالهِ ايضاً ما الافكار الاَّ احلام لا تصح الاَّ اذا برزت في العمل . واذا اتتكم مصيبةٌ فتحملوها بالصمت فان الشكوى لغير الله مذلة . وهو ما اوصى بهِ الامبراطور فردريك وهو في مرضهِ الاخير الطويل المؤلم ابنهُ ولهلم الثاني امبراطور المانيا الحالي يا ابني تعلم احتمال الشدة ولا تضجر منها . وقال شاعر عربي في التعويل على النفس

وانما رجلُ الدنيا وواحدها   من لا يعول في الدنيا على رجلِ

وقال آخر في وجوب غاية السعي

على المرء ان يسعى الى الخير جهدهُ   وليس عليهِ ان تتمَّ المطالبُ

(٢) تكريم النفس وهو الشهامة اي عزة النفس وترفعها عن كل ما هو خسيس ذميم حقير في سيرة الانسان الظاهرة والباطنة . فلتكن انفسكم ابية ابدًا وابعدوا عن كل ما يعيبكم من الحقد والحسد والغيبة والظلم والاستهزاء بالناس والتهكم عليهم وهم ربما كانوا ارفع منكم علمًا ومقامًا . وكونوا كرماء اسخياء واجتنبوا البخل القبيح الذي قيل فيهِ ان البخيل يعيش في هذه الدنيا عيشة الفقراء ويحاسب في الآخرة حساب الاغنياء . ولا تتذللوا لاحد بغية الخير منهُ ولا سيما اذا كان لئيماً بل اعرضوا عنهُ

وكن ابيًا عن الاذلال ممتنعًا   فالذل لا ترتضيهِ همة الرجلِ

واذكروا ما قالهُ شكسبير اذا خسرت كرامتي فقد خسرت نفسي وما قالهُ زهير في بعض هذه المعاني

ومن يغترب يحسب عدوًّا صديقهُ   ومن لا يكرم نفسهُ لا يكرمِ
ومن يجعل المعروف من دون عرضهِ   يغرهُ ومن لا يتق الشتم يشتمِ

(٣) الصدق . وهو اعظم الفضائل كما ان الكذب اقبح العوائد . فهو الدعامة الحاملة للهيئة الاجتماعية باجمعها بحيث انهُ اذا بطل لا نعلم ماذا نصير اليهِ من الخراب . وهو اخصّ ما يتميز بهِ الكريم عن اللئيم بل نقول ان الصادق رفيع المقام ابدًا يوثق بهِ في الكلام والعمل ويعهد اليهِ بما يكسبهُ كثيرًا من الخير واما الكذَّاب فحبلهُ قصير لا يلبث ان يسقط في اعين الناس فيصير حقيرًا مكروهًا مجتنبًا وربما ادَّى ذلك بهِ الى قلة اسباب الرزق وفقر المعيشة . ومن اقوال الحكماء في هذا المعنى تكلم بما تعلم صدقهُ وليكن كلامك مطابقًا لما في باطن نفسك . اثمن كنوز الدنيا الصيت الطاهر فاذا زال لم يكن الانسان الاَّ طينًا مصبوغًا . لو صوِّر الصدق لكان اسدًا يروع ولو صوِّر الكذب لكان ثعلبًا يروغ . يبلغ المرء بالصدق منازل الكبار . الصدق صدقان اعظمهما في ما يضرُّك . الصدق عمود الدين وركن الادب واصل المروَّة ولا تتمُّ هذه الثلاثة الاَّ بهِ . الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب

ومن اخصّ انواع الصدق وافضلها الوفاء بالعهد اي القيام بما يعهدهُ الانسان على نفسهِ من الوعد لغيرهِ . وربما لم يكن لي ان اوضح المعنى المراد باحسن من ذكر شاهدٍ لهُ جرى في التاريخ . وهو انهُ لما كان ولهلم الثاني امبراطور المانيا في دمشق منذ سنين قليلة ذهب بمحفل عظيم الى ضريح السلطان صلاح الدين الايوبي ووضع عليهِ اكليلاً من الازهار فعجب الناس من ذلك . وانما فعل الامبراطور ما فعل لان هذا الرجل العظيم اظهر في حروبهِ مع الصليبيين من الشهامة والمروَّة والوفاء بالعهد ما صيَّر لهُ شهرةً ذاع خبرها من ذلك الزمان الى الآن حتى ان كل اولاد مدارس العالم المتمدن يقرأُونها ويرون فيها قدوةً لهم في عزَّة النفس وشرفها . فمن ذلك انهُ لما حاصر صلاح الدين القدس وضيق على حاميتها وجبرهم على التسليم صالحهم على الخروج منها بعيالهم واموالهم الى المين التي كانت حينئذٍ بيد الصليبيين بفدية عشرة دنانير عن كل رجل . ولما اخذوا يخرجون ويدفعون ما ترتب عليهم من الفداء كان بينهم بطريقهم الكبير ومعهُ بغال حاملة خزائن عظيمة من المال فاشار الى السلطان بعض أُمرائهِ بما كانوا يرونهُ وقالوا لم يُعقد الفداء والصلح على هذا المال قال بلى قد عاهدتهم على عشرة دنانير لكل رجل فيدفعها ويذهب في سبيلهِ وهكذا كان فصدق فيهِ المثل السائر الذي ذكرناهُ آنفًا الصدق

صدقان اعظمهما في ما يضرّك. ولكنهُ كما كان صارمًا على نفسهِ في غاية الوفاء كان ايضًا شديد العقاب للذين ينكثون العهد. فمن ذلك ان امير الكرك الصليبي نقض المدنة وغزا قافلةً من المسلمين فقتل الرجال ونهب المال ولما بلغ الخبر السلطان غضب غضبًا شديدًا ونذر على نفسهِ ان يقتل ذلك الخائن بيدهِ اذا مكَّنهُ الزمان. وكان الامر كما اراد لان من جملة الاسرى الذين سلموا للسلطان بعد واقعة حطين كان ملك القدس والامير المذكور آنفًا ولما وصلوا جميعًا الى طبريا ونزلوا في مضرب طلب الملك ماء ليشرب بعد يوم قاسى فيهِ الصليبيون من العطش ما لا يوصف فامر لهُ صلاح الدين بذلك ثم بعد ان ارتوى ناول الكاس الى رفيقهِ الامير فشرب والسلطان ينظر اليهِ ولا يقول شيئًا . ولما فرغ قال لهُ صلاح الدين اني امرت بالماء للملك لا لك لاني لو فعلت ذلك لكنتَ آمنًا مراعاة لحقوق الضيافة وقد عهدت على نفسي ان اقتلك بيدي لنكثك المدنة التي اتفقنا عليها وايقاعك بقوم سائرين آمنين واني فاعل ذلك الان ثم قام وضرب عنقهُ بالسيف . فكان شهمًا عظيمًا يفي بوعدهِ ابدًا ويتطلب الوفاء من الذين يعاهدونهُ وصار رُعبًا للمراوغين في زمانهِ وعبرةً في كل جيل لكل من يروم العلاء في المكارم. ومما ذكر في تواريخ تلك الحروب انهُ كانت مودّة شديدة بين صلاح الدين وريكاردوس ملك الانكليز الملقَّب بقلب الاسد لما كان في كليهما من الصفات الرفيعة فكانا يتقاتلان ويتحابان حتى انهُ لما مرض ريكاردوس في عكا بالحمَّى ارسل لهُ صلاح الدين الفواكه والثلج ولما قُتل جوادهُ في حرب يافا التي انهزم فيها جيش المسلمين بامارة السلطان ارسل لهُ جوادين من خيار الخيل العربية. وقرأتُ في التواريخ العربية والافرنجية انهُ جرت مراسلة بينهما لزواج اخي صلاح الدين بابنة عمّ ريكادوس ولكنهُ لم يتمّ . فلما وضع الامبراطور وِلهلم ذلك الاكليل من الازهار على قبر مكرم لم يكن في ذلك شيء يوجب الدهشة والعجب بل هو ما لاق بمقامهِ العالي أن يشهد لدى العالم بما احرزهُ صلاح الدين الايوبي من الاحترام في كل نفس شريفة

وقد استقصي ماركوس اوريليوس الامبراطور الروماني البحث في الاخلاق الحميدة التي يجب على الشاب ان يسعى اليها جهدهُ ويربيها في نفسهِ ويتميز بها في حياتهِ وجمعهُ في كتاب لهُ معروف باسم الافكار ومشهور بين الناس ولعلكم جميعكم تقرأونهُ اما في ترجمة او في لغتهِ الاصلية. فمن جملة كلامهِ في ذلك الكتاب ما قالهُ في الفيلسوف مكسيموس وهو تعلمتُ منهُ الحكم على نفسي وعدم الانقياد الى شيء من الشرّ والبشاشة في كل حال ولو في المرض والجمع بين لين الجانب وكرامة النفس والعمل في ما أُكلفهُ بلا ضجر. ورأيت

الجميع على يقين من انهُ كان يعتقد بما يقولهُ وانهُ لم يكن في كل ما عملهُ شيء من سوء النية ولم يدهش ابدًا او يبغت ولم يعجل في امرٍ او يؤخرهُ في العمل (١) ولم تأخذهُ حيرة او كرب ولم يضحك ليكتم كدَرهُ ولم يكن غضوبًا او ظنَّانًا . وكان يعمل الخير سهل الصفح بريئًا من كل ما فيهِ كذب وعليهِ سمة الرجل الذي لا يمكن تحويلهُ عن الصلاح لا الرجل الذي قد أُصلح . ومن اقوال مركوس اوريليوس ايضًا وتعلمتُ الحياء والمروءة والشهامة والاحسان والنزاهة لا عن اعمال السوء فقط بل عن افكار السوء ايضًا وتحمُّل التعب والكدّ باليد والبساطة في المعيشة وعدم التحرُّش بامور غيري وان لا أُشغل نفسي بالاشياء البخسة . وتعلمت ايضًا ان اعاشر العلماء وان اخلاقي محتاجة الى الاصلاح والتهذيب وان ابعد عن المباحث التي لا شيء فيها الاَّ الحيرة وعن التظاهر بالعلم والصلاح وان لا اكتب بالتكلُّف وان اصالح من اضرَّني بالكلام او العمل اذا اراد وان اقرأ بالتمعن ولا ارضى بفهم كتاب فهمًا قليلاً وان لا أُسرع الى تصديق من يكثرون الكلام وان لا انظر ابدًا الاَّ الى المعقول . وتعلمت ان اقبل من الاصدقاء معروفًا لا أُذَلّ بهِ ولا اغفل عن شكرانهِ ووفقت المعيشة على ما يوافق شرائع الطبيعة والرصانة بلا مصانعة وان أُراعي مصالح اصدقائي وان اتحمل جهالة الجهَّال والذين يذهبون مذاهب وهم لا يتبصرون فيها انتهى . فهذه الاقوال وامثالها التي تشغل نحو مائتي صفحة من كتاب صغير حكم ثمينة اذا اصغيتم اليها وعملتم بما ترشدكم اليهِ كان لكم منها نفع عظيم في صفاتكم الذاتية ومنزلتكم عند الناس وعون كبير لما تجدُّون فيهِ من مساعي الحياة

وعند الامة الانكليزية كلمة شاملة لبعض الفضائل في الانسان لا تستوفي معناها كلمة واحدة في غيرها من اللغات ولذلك اخذوها كما هي الى لغات كثيرة . وهي كلمة جنتلمان (gentleman) للرجل ومعناها الحرفي الرجل اللطيف على انهُ يراد بها اكثر من ذلك وهو كل ما يميزهُ باللطف والصدق والوفاء وحسن الخلق والسلوك والادب والنظافة وعزة النفس والشكر على المعروف عن الجلف الفظ الخسيس الدنيء الساقط . وهو عندهم حد حاد فاصل بين رتبة شرفاء القوم ورعاعهم — بين اكابر الهيئة الاجتماعية والاجلاف الذين يرفض قبولهم فيها . وهي كثيرًا ما تكون موروثةً في سلالة الاكارم او مكتسبة من معاشرتهم او غريزية في بعض الناس . وقد رأَيت في كثيرين من اهل المشرق كأَنها طبيعية فيهم مولودة معهم لا تختلف عما يشاهد في غيرهم

---

(١) ولا أُوخرُ شغلَ اليومِ عن كسلٍ   الى غدٍ انَّ يومَ العاجزين غدُ

ومن ذلك انهُ لما كنت طبيب مستشفى فرسان مار يوحنا في بيروت دخلتهُ اختان مصابتان بمرض في العيون من قرية بيوتها لا تختلف عن المزابل . وكانت الكبيرة منهما في نحو السنة السادسة عشرة من العمر والصغيرة في السادسة او السابعة وبقيت في المستشفى بضعة شهور اراهما كل يوم والكبيرة تسألني دائمًا عن اختها ولم تسألني مرة واحدة عن نفسها . فعجبت كل العجب كيف ان هذه الفتاة في اول صبوتها وشدة مرض بصرها تنسى حالها وتهتمّ لاختها الصغيرة وسألت رئيسة المستشفى التي كانت ترافقني في عيادتي اليومية وهي من حاذقات نساء الألمان هل انا مخطئٌ في ما اخذني من العجب قالت لا لان هذه الابنة على غاية اللطف في كل تصرفاتها واخلاقها من اكرم الاخلاق وامرها من النوادر التي تذكر في اجتماع التربية الحقيرة والمنزلة الوضيعة مع علوّ النفس الغريزي . وقال احد كبار العلماء في هذا العصر ان صفة الكريم كصفة الشاعر فطرة طبيعية لا مكتسبة على ان السعي اليها والجدّ فيها وتربية النفس عليها من الامور الواجبة الممكنة . فانتبهوا ايها الشبان الى هذه الكلمة ذات الشأن العظيم والى معناها والى ما تؤدي اليهِ من الكرامة

فما للمرءِ خير في حياةٍ   اذا ما عدَّ من سقط المتاعِ

لقد طال هذا الخطاب وربما مللتم منهُ وحسبتم ان المقياس الذي نصبتهُ امامكم عالٍ لا يصل اليهِ احد من البشر واني نسيت انكم خلقتم ضعفاء وان التجارب التي في باطنكم والتي تحيط بكم شديدة البأس هيهات ان يسلم احد من غيها او لا يقع فيها و يسقط ويتهشم . فاقول اني لم انسَ شيئًا من ذلك واني اعرفهُ حقَّ المعرفة لاني قد جزت العقاب التي انتم سائرون فيها الآن وتعلمت بالخبرة ما انتم تعلمونهُ وما لا تعلمونهُ ولذلك كان ما اوصيكم بهِ في ختام الكلام شأن عائد لا الى فضلٍ فيَّ بل الى حياة طويلة ودرس طويل ومراقبة طويلة في انهماك الشباب في الجهل وضلال الدنيا للجميع حتى الشيخ الذي يئنُّ منها و يقول

فإنَّ امّارتي بالسوء ما اتعظت   من جهلها بنذير الشيب والهرمِ

فوصيتي الاولى ان تدأبوا دائمًا في تهذيب اجسادكم وعقولكم وانفسكم على ما تقدم من الكلام. واذا كان القياس الذي تشخصون ببصركم اليهِ رفيعًا او وهميًا عقباتهُ كثيرة عسرة فلا تيأسوا لانكم اذا لم ترتفعوا الى اعلاهُ ارتفعتم ولا محالة الى بعضهِ وهو شيءٌ يذكر . قال احد الافاضل وصدق هل سمعتم ابدًا ان احدًا جاهد كل حياتهِ جهادًا امينًا صادقًا في نيل غرض ولم ينل شيئًا منهُ ألا ترتفع النفس اذا تاقت دائمًا الى الخير . هل سعى احد للرجولة وعزَّة النفس والصدق والاخلاص وكان جهدهُ عبثًا

ووصيتي الثانية صلُّوا ابدًا صلاة داود النبي القائل قلبًا نقيًّا اخلق فيَّ يا الله وروحًا مستقيمًا جدد في داخلي . فهي افضل ما يصعد القلب فيهِ الى الله من الصلاة لانكم اذا نلتم منهُ تعالى القلب الطاهر الذي ينفر من الدنس ويجتنبهُ ويحاربهُ واذا كان فيكم الروح المستقيم روح الصدق والاخلاص والعدل والكرم والبر والاحسان واغاثة المسكين فقد نلتم امرًا كبيرًا . واذا وجدتم ابواب السماء مغلقةً لايجتازها صراخكم — وهو عسر التصديق — فليس في ذلك عبث اذ ينعكس عملهُ في باطنكم ويحملكم على الجد في كل ما منهُ خيركم . واذا عثرتم وسقطتم فلا تقنطوا بل انهضوا في الحال وجددوا القتال ما دمتم احياء ولا تكفوا حتى تغلبوا

ألا في سبيل المجد ما انا فاعلُ   عفافٌ واقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

الاغلاط الاستقرائية

في الانسان كما في غيرهِ من الموجودات قوة وضعف وكمالٌ ونقصٌ يرى الناظر اليهِ خلقًا في احسن تقويم يديرهُ عقلٌ لا يُسبر غورهُ ولا تعرف حقيقتهُ يحلُّ المبرمَ ويكشفُ المُلَففَ ويدفع الامر الجلَل على انهُ ربما سقط في ما لا تسقط فيهِ العجماوات ولجّ في الباطل لجًّا يُزري على باطل المعتوهين وهذيان المتخبطين . ويتفاوت نصيب الامم من هذا الانحراف العقلي ويختلف باختلاف تربيتها ودرجة قواها العقلية . فالامم الجاهلة الخاملة لما استسلمت لتيار جهلها وانقادت لصوت طيشها كان نصيبها من امراض العقل اوفرَ من نصيب جاراتها من الامم الحية التي نشأت في زوايا الكليات الجامعات وقعدت على منصّةِ العلم وتربعت في نوادي الادب

قال جفنس "قد يقضي قوم حياتهم ناظرين سامعين شاعرين وهم لا يفقهون معنى لما رأوا" ونعرف من الشعوب من اذا انهكتهُ المظالم واهلكتهُ القوارص وضعضعت مناكبهُ صفقات الشرطة وويلات المستبدين ذهب الى أن ذلك مثال كامل في العدل ونموذج حسنٌ في حسنِ السياسة

بمثل هذا انحرف العقل عن جادتهِ وعلى هذا النمط اختلفت الامم في شعورها حتى بلغ الذهول ببعضها درجة المسلوبين المخدَّرين

وقد ذكرت في ما يأتي اغلاطًا استقرائية كثيرة الحدوث خصوصًا بين ظهرانينا وأرجعتها الى انحراف في الحسِّ والحكم والتسليم والخيال والادراك ونقص في الاستقراء . ولم

اتعرض لأغلاط الاستنتاج لأن اهمها مذكور في كتب المنطقيين المتقدمين

اغلاط الحس

قال ابن سينا في الشفا " من فقد حسًّا فقد يجب ان يفقد علمًا ما " ومن لم يَرُض بصرهُ ويهذب سمعهُ ويربِّ لمسهُ ويستعن بالمبصرات المسمعات اصابتهُ عاهات في مراقبتهِ ربما ادَّت بهِ الى تيه من الاغاليط يتعذَّر الخروج منهُ او يستحيل

ظهر المرض الوافد (الهواء الاصفر) منذ عامين في بعض البلاد الشرقية فهزأ طغمة الجهل من الاهالي بما اتخذ من الاحتياط لمقاومتهِ وسخروا بالجراثيم وبمن يعتقد بوجودها لانهم لا يرونها . ومن يمرّ في الشوارع في هذه البلاد ايام وطيس الحر وينظر الغبار المتصاعد كقتام الجحافل لا تمرُّ عربة او خيل الَّا وتثور وراءها عواصف من صعيد رجس تتيمهُ الصدور النقية والاعين المتلألئة يعلم ان هذا الاعتقاد الخرافيّ لم ينحصر في عوام تلك البلاد بل ربما تعدَّاها الى طبقة الخواص التي يتوقف عليها نجاح الامة

وقد يمكن المرء رؤية المحسوسات لكنهُ يعميهِ عنها خُلُق او عادة او انفعالٌ او دينٌ شبَّ عليهِ وربما لم يلتقط من مقدمات الحس الَّا ما تتطلبهُ نفسهُ كمن يناضل عن بعض العوائد السالفة الفاسدة التي لا تخلو من نفع قليل فانهُ لا يرى منها غير هذا النفع ضاربًا صفحًا عن سوآتها. وكذلك ينشأ في العالم دين او مذهب فتتفرق اتباعهُ شيعًا كل شيعة بما لديها فرحة تدعي انها على صراط ذاك الدين القويم — لانها لم ترَ في كتبهِ الَّا ما سوَّلتهُ لها نفسها مغمضة عن حجج الخصم ومدعاهُ . هذا في الحسيَّات المعنوية اما في الحسيَّات المادية فاذكر انني كنت مع رفاقي في احد صفوفنا المدرسية فاعطانا الاستاذ قطعة قصت من ورم وطلب من كلٍّ منا ان ينظر اليها بالمكرسكوب ونصف لهُ ما نرى فكان احدنا اذا توهم انها ورم دهنيٌّ لم يرَ غير خلايا الدهن واذا توهم انها ورم غشائي لم يرَ غير الالياف الموصلة الى غير ذلك من الاختلاف البين حتى ذكر لنا انها كيت وكيت فصرنا نراها كما وصف لم يفتنا منها ذرَّة واحدة

ولا شكَّ ان الناس يختلفون من حيث كمية ما يحسون بهِ في وقت واحد كمن يزورون المعاهد القديمة مثلاً فان منهم من لا يرى غير الابواب والعمد وبعض النواتىء الظاهرة. ومنهم من يرى الكتابات والنقوش وتقاطيع التماثيل ايضًا ومنهم من يفوق ذلك فيرى دقة تنضيد البناء واجادة النقش والاحكام وربما صوَّر لنفسهِ مصوَّرًا يرى بهِ حدود البناء واقسامهُ

ويقابل ما تقدم ضعف في بعض الناس عن ان يجمعوا حواسهم ويصوبوا تنبههم الى

المحسوسات اللازمة فقط حتى لا تشوشهم الزوائد الحسية التي لا دخل لها في حقيقة موضوعاتهم · فهؤلاء اكثر مؤرخينا المتقدمين قلما يذكرون موضوع التاريخ على ان كتبهم طافحة بذكر النوادر والمحاضرات واسماء الجواري والمغنّين وغير ذلك وربما كانت اشبه بديوان شعري منها بكتاب يسجل اخبار الدولة وعمران الامة · واشبه بهذا ما جرى لي منذ مدةٍ حين كنت في بعض قرى الشام فوجدت متحجرات مرجانية اخذتها معي الى دمشق فكان بعض من اطّلع عليها تتعذر عليهِ رؤية الاشكال المرجانية وحدها من غير ان يشوشهُ قَطْعُ الحجر ولونهُ ومادتهُ. ويظهر مما تقدم ان التعمق والاحاطة بالمقدمات الحسية اللازمة كالتوسع في دوائر الحسّ ضروري لصحة النتيجة

ويلحق بهذه الاغلاط خلط الاستنتاج بالحسّ كما يظهر القمر لاكثر الناس عند شروقهِ اوغروبهِ اكبر منهُ وهو في كبد السماء لانهُ على الحالة الاولى يتوسط بيننا وبينهُ اجسام نقدّر بعدهُ عنّا بها· فلو ظهر لنا بقدر شجرة او صخرة على حدود الافق المرئي نستنتج انهُ اكبر منها لانهُ ابعد منها فنرى هذا الاستنتاج محسوساً على ان قياس القمر الدائري يصغر كلما قارب القمر الافق

ومن نوع هذا الخلط الحسي الخلط المعنوي كنظر الشرقي للمرأة اليوم فانهُ بعد ما مرّ عليهِ حين من الدهر كانت النساء فيهِ عنوان الحقارة ومثال الخساسة استنتج انهنّ بقين كذلك ما دام في البحر بلّة فاذا رآهنّ اليوم اختلط استنتاجهُ بحسهِ وظهرت لهُ المرأة وضيعة القدر خاملة الذكر فكأن لسان حالهِ يقول مع شاعر اليونانيين : ”للمرأة يوما سرور عند الرجل — يوم زفافها ويوم وفاتها“ . وهذا الخطأُ الناشيء من ضعف الحواس وتغلُّب الاستنتاج عليها هو من اقوى العوامل على ضعفنا وقد تحكَّم فينا حتى انهك قوانا وغل ايدينا امام حاجاتنا العمرانية

وربما استحال على المرء التنبه لهُ لان الحس كما يقول جون ستورت مل ”لا يكاد يدب حتى ينوء بحمل من تنبهات اكتسابية“ يعرف ذلك المصححون في المطابع فهم مهما اجهدوا انفسهم في تنقيح المسودات قلما يفلحون تماماً لانهم في مراجعتهم الكلمات لا يقرأُون حروفها كلها بل ربما قرأُوا اوائلها واواخرها واكملوا من استنتاجهم اواسطها وهم يظنون انهم رأَوا كل حرف منها

الاغلاط الحكمية

تحدث هذه الاغلاط من تفسير المحسوسات وارجاعها الى غير محالها من النظام العقلي لان هذا النظام اشبه بالمراكز التلغرافية العمومية التي لو ارجعت ما يأتيها من الانباء الى غير محلهِ ومنبعثهِ لاختل نظامها وانفرط عقدها · مثالهُ زعم علاقة سببية وارتباط لازم بين حوادث

مختلفة اقترنت بزمان او مكان واحد اتفاقًا كالبسطاء الذين يذهبون الى ان نجاح المسلمين في عصورهم الاولى نشأ من اقامتهم الصلوات في اوقاتها او من افراطهم في التقشف الى غير ذلك من الاقترانات الاتفاقية التي لا دخل لها في تفسير هذا التقدم العمراني . وكثيرًا ما يرى المطالع في الكتب والجرائد الغربية اخبار ما يحدث من النجاح بعد سن الشريعة الفلانية او القانون الفلاني ولكن لا يلبث ان يرى ان هذا النجاح حدث اتفاقًا وان تلك الشريعة او ذاك القانون فاسد يجب تغييرهُ او محوهُ

ومن هذه الاغلاط الحكمية الشبه الكاذب بين الاشياء كمن يدعي ان الحكومة الاستبدادية خير للبلاد في كل الاحوال وانفع لانها مثل الحكومة البيتية (العائلية) وهذه كما يعلمها القراء على متانتها استبدادية محضة ولكن فاتهُ ان الرابطة في الحكومة الاولى قد تكون نفعية مادية بين رجلين مستأجر واجير وفي الثانية ابوية اهلية بين قاصر ووصي حنون. ولا نقصد بكلامنا هذا الحط من قدر البراهين التمثيلية فان منها ما لهُ وقع جميل وحجة منتخبة كالتشبيهين اللذين اشار اليهما جون ستورت مل من ان العقل الصغير لا يسع العقل الكبير كما ان الكيل الصغير لا يسع الكبير او قول دالمبرت "ان بعض الحكومات لا يبلغ الاوج فيها الاَّ النسر او الثعبان"

وتختلف هذه الهفوات الحكمية باختلاف الامم والمحيط والتربية الشخصية وبضعف الانسان الفطري من حيث هو فهذه كتب "العلم الالهي" مملوءة بالسفسطات والمغالط لان العقل البشري يحوم هنا حول الاحاطة بمن "ليس كمثلهِ شيءٌ" سبحانهُ عما يصفهُ الواصفون

ونذكر في هذا الباب فعل التعصب والانفعال والخرافات في الحكم على المشاهدات وقد اجاد من شبه العقل الراسخ بالبحر الهادىء الرائق الذي يعكس صور ما يعوم عليهِ تمامًا فاذا حركتهُ العواصف هاج وماج وتكدر صفوهُ وربما حطم ما يحملهُ من سفن الحقائق . هذا ديّن المغرب يعتقد بصحة دعوى من يقدسهُ لما يعضدها من المعجزات فان رأى مثل هذه منسوبًا الى بوذا عدَّهُ مستحيلاً وذهب الى انهُ افك افَّاكٍ وتخرُّص مجنون

قال الامام الغزالي في هذا المعنى(١) : —

واكثر اغاليط النظار من التصديقات بالمألوفات والمسموعات في الصبي من الاب والاستاذ واهل البلد والمشهورين ‎. . . . . .‎ واعلم ان من الاذهان ما فطر فطرة تسارع الى قبول كل مسموع ثم ينصبغ بهِ انصباغًا لا يمكن البتة انجلاؤهُ عنهُ ويكون مثالهُ كالكاغد الرخو

( ) محك النظر في صحيفة ٧٤

الذي يغوص الحبر في عمقهِ فان اردت محوهُ لزمك افساد الكاغد وخرقهُ وما دام الكاغد موجودًا كان السواد فيهِ موجودًا فهؤُلاء ايضًا ما دامت ادمغتهم موجودة كانت هذه الضلالات فيها موجودة لا يقدر البشر على ازالتها ..... ومهما قصد رسوخ مثل هذا الاعتقاد في النفوس ينبغي ان يكرر ذلك على السمع في الصبي ويجتم الوجه عند ذكر منكرهِ ويستعاذ بالله تعالى ويطلق اللسان في ذمهِ ويقال ان ذلك قول بعض الكفرة .... فلا يزال يترسخ في نفس الصبي ذلك على التدريج من حيث لا يشعر كما يرسخ النقش في الحجر ويتعذر على كل العلماء دواؤُهُ بعد الكبر مثل العلة المستحكمة التي تجاوز معالجتها قدرة الطبيب ولا فرق بين مرض القلوب ومرض الابدان”

الاغلاط التسليمية

اتفق اكثر العلماء على أن في الانسان مراجع تسليمية صادقة متى رُدَّت النتائج اليها كانت صحيحة وقد سماها البعض بالبديهيات لكنهم لم يعينوها وقد نشأ من بعض ما يشبهها ويظن انهُ تسليميٌّ بديهيٌّ سقطات فادحة اضرّت بالعمران كالقول بأن ما لا يمكن تشخيصهُ في الفكر لا يمكن وجودهُ. وقد سقط في ذلك منتقدو كولمبس لما ردّوا عليهِ اكتشافهُ كروية الارض والبلاد الاميركية لان ذلك يوجب وجود من يقف على وجه الارض معكوسًا وهذا لا يمكن تشخيصهُ اذن فوجودهُ مستحيل . وعدّ جون ستورت مِل من هذا القبيل ذهاب الطبيعيين المعاصرين الى وجوب الاثير في الخلاء لانهم لم يقدروا على تشخيص فعل مادةٍ على اخرى بلا التصاق او واسطة فالقاعدة عندهم “ انّ الشيء ليس لهُ فعل في محلّ لا يوجد فيهِ .... وبعد ما تقدَّم يجب علينا ان لا نعتمد على كثير من البديهيات كالقول انّ المادة لا يمكنها التفكر وان الفضاء ليس لهُ نهاية وان الخلق من العدم مستحيل ”

ويشبه هذا الخطأَ الاغلاطُ اللغوية كالاعتقاد بأن ما نفرقهُ بين الاسماء في اللغة يجب ان يكون كذلك في الحس وقد نشأ منهُ خلط كثير في كتب المتقدمين خصوصًا . قال ارسطو “ لا يوجد في الخلاء فوق او تحت لان الخلاء لا شيء واللاشيء لا يوجد فيهِ شيءٌ فكيف يوجد في الخلاء مثل هذه الاشياء ”. وكان العلماء المتقدمون يذهبون الى وجوب الاختلاف بين المظاهر الارضية والمظاهر السماوية (لاننا نفرق في اللغة بين الارض والسماء) واذكر ان صديقًا لي اعطاني في السنة الماضية بقية شهاب سماوي لا حالةَ لهُ فكان جلُّ من رآهُ تأخذهُ الدهشة اذا ذكرت لهُ انهُ مؤلف من عناصر موجودة في الارض كالحديد والنحاس والنكل الى غير ذلك . واعظم الموانع في سبيل الهيئة الحاضرة الى الافكار العمومية استهزاء

الجهلاء بما هو معلوم اليوم من امر الارض وانها اخت شقيقة لبقية الاجرام السماوية

اغلاط الخيال

لا نريد ان نذكر هنا ما يحدث للخيال في بعض الامراض كالحميات وغيرها مثلاً وانما نذكر فعل الخيال الطبيعي وما يمكن ان ينشأ عنهُ من المغالط . واظهر انواع هذا الخطإِ هو في بناء النظريات وتعليل الحوادث الكونية وكثيرًا ما نجسم الخيالي الخالص ونذهب الى انهُ امر واقعي مجزوم بصحتهِ . وكل نظرية تنشأُ في العالم سواءٌ كانت دينية او علمية لا بدَّ لها من الاعتماد على الخيال فان احسنتْ استعمالهُ قبضت على زمام افعل الوسائط في البحث والتنقيب وان اساءت فلها منهُ اخصب مصادر الخطاء . وهؤُلاء اكثر المتصوفة لمَّا ذهبوا الى صحة كل ما يطرأُ على خيالهم ووهمهم — الى صحة ركوب الماء (من غير سفينة) والى ركوب الهواء (من غير منطاد) والى الصعود الى الملإِ الاعلى والتسلط على البشر او على الكون جميعهِ — اخرجوا للناس فلسفة لو لم يزينوها بالمبهم والمعمَّى لبرئَ منها اكثر مريديهم وعدَّها ضربًا من فعل المخدرات . ويذكرني فعل المبهم اللفظي هنا بالمبهم الحسي المادي كالذي جرى في شمال ايطاليا منذ امدٍ ليس يبعيد حيث هطل من السماء رجيع بعض الهوام فزعم السكان انهُ منٌّ منَّ الله بهِ عليهم وصاروا يبتلعونهُ حتى لم يبقَ منهُ الاَّ النزر القليل للتحليل الكيماوي وما فعلوا ذلك الاَّ لانهُ ابهم عليهم امرهُ . والمشهور عند العلماء اليوم ان ما كان يدعى خارقًا للعادة في ازمن البساطة الماضية هو من هذا القبيل — تجسيم الخيال وضعف وسائط الحس والتجربة

وربما ساعد حب الانسان للفلسفة وميلهُ للاختراع على انتشار هذا الخطإِ ففي الربع الاخير من القرن الماضي أُعلن اكتشاف نحو من اربعين عنصرًا بين العلماء لكن هذه العناصر لم تلبث ان عُدَّت من بنات الخيال واستهداف الآمال . ويتبرم طلاب الحقائق اليوم من فعل هذا الخيال في كثير من العلوم العصرية كذكر سكان الاجرام السماوية مثلاً وعقولهم واقتدارهم وعلومهم ومعارفهم الى غير ذلك مما يأْباهُ العلم الصراح . وفي كتب الحياة والاخلاق والنفس والعمران وفلسفة الامراض كثير من هذه الامكانات الخيالية على ان القاعدة في وضع النظريات ان توافق النظريةُ الحقائق المقدمة وفضلاً عن ذلك ان ترتبط بها ارتباط اللازم والملزوم

الاغلاط الادراكية واغلاط الاستقراء الناقص

تحدث الاغلاط الادراكية من توحيد المدركات وتعميمها وذكرها على صورة النواميس الكونية الكلية كالقول المشهور "التاريخ يعيد نفسهُ" "ولا جديد تحت الشمس" وما

لا يوجد في الغابر لا يوجد في القابل" — جمل على كثرة صحتها لا تخلو من مواضع النقد . فيا هل ترى اذا كانت المرأة في الماضي (والحاضر في بعض البلاد) العوبة للرجل ليس لها من الامر في الاسرة الاَّ ما رسمهُ الجهل لها انبقى كذلك الى الابد ؟ يعلم تخرُّص هذا القول المعاصرون الذين رأوا ثورةً وانقلاباً في تاريخ المرأة في البلاد المتمدنة وهم يتوقعون مثلهُ (وعساهُ يكون اخف وطأة واقرب للمروءة) في بلاد ارخى ظلام الجهل فيها استارهُ وشمس العلم في رائعة النهار

ولما فطر الانسان على حب التعميم ولمّ شعث المحسوسات كان هذا النوع من الخطإ كثير الانتشار خصوصاً بين علماء الحيوان والنبات فانهم في ترتيبهم الموجودات الحية ربما ادخلوا في الاجناس والفصائل ما ليس منها مغمضين عن الاختلاف المميز ومنشأ ذلك ضعف في الاستقراء والبحث

ويدخل في هذا الباب الغلط الناشئ من اغفال بعض الناس امكان تعدُّد الاسباب مثالهُ ما ذكر المستر هبن "من ان حركات صغار الحيوان كثيراً ما تنسب للغريزة والخلق على اننا نعلم ان للتقليد دخلاً عظيماً في عملها فلو ابعدنا الحيوان المقلّد لبطل اكثرها". واقرب من هذا المثال ما يذكرهُ بعض المصلحين في الشرق من التعاليل المفردة لتأخر بلادهم كالاستبداد اوفساد الاسرة او التباغض او التعصب مثلاً والصحيح ان مجموع هذه المصائب وما شاكلها هو العامل على تربع البوم في عمران اهل المدنية القديمة

ومن ذلك ايضاً ارسال النواميس التي قامت على الاختبار والتجربة الى ما وراءها وجعلها مضطردة سواء في المعلومات او المجهولات قال احد الكتاب "ان توسيع دائرة امتحانية محدودة توسيعاً استنتاجياً يدعو دائماً الى نتيجة فاسدة وثمرات مضلة"

وقد يؤدي الافراط في تطلب حكمة الكون والقصد من الموجودات الى الاكتفاء بالاسباب السطحية دون التعمق في الارتباطات السببية ونتائجها والاحاطة بالمعلومات وقد استشهد عليهِ المستر هبن بذهاب المتقدمين الى أن وظيفة اوراق الشجر هي حماية الثمر من الشمس والهواء ليس الاَّ وقد اكتفوا بهذه الحكمة دون النظر الى فعل الورق في تنفس الشجر وهذه الوظيفة هي اهمّ من تلك كما لا يخفى . ومن هذا الخطإ ما نرى في كتب بعض الناشئة من ان وظيفة النساء هي امور البيت فقط وفاتهم ما تفعلهُ المرأة اليوم في البلاد المتمدنة من الوظائف التي كان لها الحظ الاوفر في اعلاء كلمة الانسان الحاضر

وذكر المستر مل ان النواميس الكلية المذكورة في بعض كتب العلم كلما كانت اختبارية

فقط من غير ارتباطٍ سببي بين الاسباب والمسببات كانت نتائجها اقرب للاستقراء الناقص. زعم بعض العلماء ان العمران البشري لا يستتب الاَّ بالجمعيات الفلانية كجمعية القسس مثلاً او بالتفرقة في الدرجة بين افراد الامة او بالاستبداد وكزعمهم ايضًا ان التهذيب يمنع من الارتزاق وان الحكيم لا ينجح في الاعمال المعاشية الكسبية — قواعد كلها من نوع الاستقراء الناقص لا تثبت امام التعمق في البحث او استقصاء الشواهد

هذه بعض امثلة من نزغات العقل وفلتاتهِ نرى اشباهها حيثما وجد الانسان وهي كالامراض السارية تحتاج الى وسط صالح ولا تنمو الاَّ حيثما عشش الجهل وضرب الذهول اطنابهُ وانقادت الناس بسوط الاستبداد كالانعام وحرم على العقل النظر والتأمل. وربما وجدنا امةً تتألف من ملايين من البشر تجري على قواعد تضحك منها الصبيان وهي تلوم القضاء والقدر على ما دهيت بهِ على انها لو فكت ادمغتها من عقالها واستنارت بنور العقل لرأت منهُ شمسًا يخرق نورها كبد الظلمات وتحرق حرارتها حواجز الترقي فينعم البال ويستريح الخاطر ولكن الامور مرهونة باوقاتها

عبد الرحمن شهبندر

الانباء بالطقس

نريد بالطقس المعنى المتعارف وهو كل ما يحدث من تقلب الهواء وانتشار السحب ووقوع المطر وهبوب الرياح او الصحو واعتدال الهواء. ولم يتوصل العلماء حتى الآن الى طريقة يمكن بواسطتها الانباء بالطقس قبل ايام كثيرة. فان الطرق المستعملة لذلك حتى في المراصد الفلكية ليس لها اساس علمي بل هي مبنية على مراقبة الجو والتقلبات التي تطرأ عليهِ فاساسها اختباري استقرائي والاستدلال بهِ لا يلزم ان يصدق دائمًا . وطرق الانباء بالطقس متعددة ومن اقدمها مراقبة حركات الحيوانات وسكناتها كالقطعان والطيور والعناكب والصراصير والنمل وغيرها من الحشرات

ومن الناس من يستدلُّ على الطقس بملاحظة المواد الآلية مثل الشعر واوتار الآلات الموسيقية وجذور النباتات فينذر بهِ من تقلصها او تمددها . ومنهم من ينذر بهِ من مراقبة الحجارة وجدران المنازل وما يطرأ عليها من رطوبة او جفاف

ومنهم قوم لا يكتفون بالطرق المذكورة بل يعولون على اجسامهم وما يطرأ على هذا

العضو او ذاك من الشعور . مثال ذلك ان الذي يصاب بالروماتزم يشعر بالم في العضو الذي ينتابهُ الداء كلما كان الهواء مشبعاً بالرطوبة

ومنهم من ينبئ بالطقس من مشاهدة احوال الهواء . ففي كل مدينة او قرية او مزرعة نفر يرجع اليهم في الانباء بالطقس ينظرون الى الجو وما تلبد فيهِ من الغيوم ويراقبون حركتها ثم ينبئونك بما يكون الطقس عليهِ غداً وكثيراً ما يصيبون . فهم يعولون على ظواهر ومشاهدات لها علاقة بالهواء واحوالهِ خلافاً للذين ذكروا قبلاً . ومن تلك الظواهر ما يكاد يعد قواعد مقررة في كل مكان وزمان . فاذا كانت السحب تتلبد في الجو دلَّ ذلك على قرب الامطار واشتدادها في البلدان التي يكثر وقوع المطر فيها . واهل كل بلاد ينبئون بالطقس من سير الغيوم في جوهم لان سير الغيوم دليل على جهة الريح والريح التي تجلب الامطار في بلاد قد تبعدها عنها في بلاد اخرى . مثال ذلك ريح الشمال فانها هي التي تدرُّ اخلاف المياه على القطر المصري او سواحلهِ الشمالية خصوصاً على حين ان ريح الشمال تبعد المطر عن بلاد الشام

ومن علامات الطقس في بعض البلاد الجبلية انهُ اذا كلِّلت هامة الجبال باكليل من السحاب استدلَّ الاهالي على قرب وقوع الامطار . واذا احاطت الهالة بالقمر كان ذلك نذيراً بالمطر في بلاد أُخرى وكذلك اذا انقشعت الغيوم وبان من ورائها غشاء رقيق من السحاب . واذا تبددت الغيوم رويداً كان ذلك دليلاً على عدم وقوع المطر في بعض البلاد . ومن الناس من يعرف حال الطقس من لون الغيوم وشكلها

وهذه القواعد كلُّها بنيت على طول الاختبار والاستقراء وهي وان لم تكن ذات اساس علميّ يركن اليهِ في كلّ حال الاَّ انها مفيدة للناس في اعمالهم بوجه الاجمال . وقد مهدت السبيل الى اكتشاف قواعد اشمل منها وادقّ مثل الانباء باحوال الطقس مدة طويلة في مكان ما بمراقبتها في فصل معين من فصول السنة او الانباء بحالة الطقس في فصل آتٍ من مراقبة حالتهِ في الفصل الذي قبلهُ

وقد ذهب كثيرون الى ابعد من ذلك فلحظوا ان الطقس في سنة من السنين كان مشابهاً للطقس في سنة قبلها فاستنتجوا ان هناك قاعدة يجري الطقس عليها وقالوا ان السنين تتشابه في طقسها كلَّ ١١ سنة او ١٨ او ١٩ وان طقس السنة القادمة مثلاً يكون مشابهاً لطقس سنة معلومة قبلها ولكن الواقع لا يؤيد ذلك

على ان قوماً لم يعتدوا بهذا كلهِ لانهُ مبنيٌّ على المشاهدة والاستقراء ولا مجال فيهِ للسبب والمسبب فجعلوا يبحثون عن السبب الذي يخضع الطقس والتقلبات الجوية لهُ حتى اذا وجدوهُ

اخذوا يبنون نتائجهم عليهِ . ومن هؤلاء الاستاذ زنجر الالماني فانهُ رأى ما للشمس من العلاقة الشديدة بالارض فقال انها العامل الاكبر في تقلبات الهواء وان هذه التقلبات ناشئة عن دوران الشمس على محورها . ولما كانت دورة الشمس على محورها تتمُّ في نحو ٢٦ يومًا اتخذ نصف هذه المدة لقياس تقلبات الطقس ووضع روزنامة (نتيجة) مدارها على تغيرهِ مرة كل ١٢ او ١٣ يومًا

ومنهم الاستاذ سرفوس فانهُ نظر الى جاذبية الارض للهواء المحيط بها وقال ان كلَّ التقلبات العظيمة التي تخلُّ بموازنة الهواء سببها انقلاب يطرأ على داخل الارض . ولكن هذا الرأي ضعيف حتى ان صاحبهُ نفسهُ اضطر ان ينسب الانقلاب الذي يطرأ على باطن الارض الى فعل الشمس والقمر وعليهِ فان رأيهُ هذا لا يكاد يختلف عن رأي الاستاذ زنجر

وقام الاستاذ لمبرخت بعدهما فبالغ في الاعتماد على السبب والمسبب في تعليل تقلبات الجو من غير ان يلتفت الى المشاهدة والاختبار فشط بهِ المزار . وادعى ان الارض محاطة بخمس حلقات تشبه حلقات زحل وان ازمنة دورانها وعلاقتها الواحدة بالاخرى هي اسباب تقلبات الجو وسماها باسماء بعض ملوك المانيا ووزرائها وكبار قوادها

ومن اقدم طرق الانباء بالطقس واكثرها انتشارًا طريقة مبنية على ان للاجرام السموية علاقة بكل ما يجري على الارض وخصوصًا تقلبات الهواء. فقالوا ان لكلٍّ من السيارات تأثيرًا خاصًّا وقسموا السنة الى مداتٍ تبعًا لتغلب هذا السيار او ذاك . ولكنهم غالوا في تقديم القمر على غيرهِ من حيث علاقتهُ بالارض وفي نسبة معظم التقلبات الجوية الى تغير اوجههِ من هلال الى بدر حتى ان من اكثر القواعد الجوية انتشارًا الآن ان الطقس يتغير كلما هل الهلال او اكتمل البدر . ومهما يكن من ذلك فان كثيرين يعلقون الشأن الاعظم على ربعي القمر الاول والاخير على ان هذا كلهُ نتيجة اعتقاد العامة بالقمر وتأثيرهِ في الارض وليس لهُ اساس علمي

ولا يعلم ما اذا كان هذا الاعتقاد تابعًا لمراقبة تقلبات الطقس فيعد نتيجة عنها او سابقًا لها اي ان الناس اعتقدوا اولاً بتأثير الاجرام السموية وخصوصًا القمر في الارض ثم جعلوا يرصدون ويراقبون ليروا ما يؤيد هذا الاعتقاد ولعل الامر الثاني هو المرجح بدليل انتشار المذهب الحديث القائل بتأثير القمر في الارض. واصحاب هذا المذهب لم يجمعوا نتائج الارصاد والمشاهدات اولاً ويستدلوا منها علي تأثير القمر في الطقس ثانيًا بل بدأُوا باقتباس الاعتقاد القديم بفعل القمر ثم جعلوا يبحثون عن اساس علمي لهُ بفرض الفروض ووضع الشروح وعرضوا نتيجة ابحاثهم على الجمهور طالبين تمحيصها بالمراقبة والمشاهدة . فهم يجرون في ذلك على ضد ما

يجري عليهِ اصحاب المذهب الآخر الذين يرصدون و يراقبون طويلاً ثم يلخصون اعمالهم في قضايا او قواعد يرسمونها للجري عليها

وليس ثمة ما يعترض بهِ على طريقة اصحاب المذهب الحديث ولكنها تستلزم نظرًا صائبًا دقيقًا وبحثًا خاليًا من الهوى اذا كان لا بدَّ من الوصول الى الحقيقة فيما يختص بتأثير القمر في الارض وجوّها

وكان الناس لاول عهدهم بالبارومتر يعوّلون كلَّ التعويل عليهِ حتى ليعصموهُ عن الغلط وينزهوهُ عن الشطط فكان اذا اقتنى احدهم بارومترًا يحسب انهُ بات مطلعًا على اسرار الغيب من حيث الطقس وتقلباتهِ فلا تخفى عليهِ خافية منهُ . فاذا وقع المطر والبارومتر يدلُّ على الصحو هاج ذلك سخطهُ او كان صحو والبارومتر يدلُّ على المطر اشتد عجبهُ وزادت حيرتهُ . ولما كان البارومتر كثير الخطاء في دلالتهِ على الطقس فقد قلَّت الثقة بهِ

ولما قلَّت ثقة الناس بالبارومتر اعتمدوا على الهيغرومتر وهو آلة تدل على مقدار الرطوبة في الهواء كما يدل البارومتر على مقدار ضغط الهواء . ولما كان لضغط الهواء ومقدار الرطوبة فيهِ علاقة بالطقس امكن استخدام الهيغرومتر مكان البارومتر ولو لم يكن هذا هو الغرض الاصلي الذي وُضع لهُ . فاذا ارتفعت درجة الرطوبة فيهِ دلَّ ذلك على ان الهواء مشبعٌ بخارًا . ولكن قد يتفق ان تزيد الرطوبة في الهواء ويبقى الطقس حسنًا فيدلُّ الهيغرومتر على قرب تغير القطس . ويتفق ايضًا ان الطقس يكون رديئًا والرطوبة تنقص فيدل الهيغرومتر على تحسن الطقس وجفاف الهواء قريبًا

واحسن انواع الهيغرومتر ما يصنع من شعر الانسان فان الشعر يتمدد بالرطوبة ويتقلص بالجفاف وكثير من المواد الآلية حيوانية كانت او نباتية لهُ هذه الخاصة . ثم نال الهيغرومتر ما نال البارومتر من ضياع الثقة بهِ لما ظهر انهُ ليس اصدق إنباءً من اخيهِ البارومتر . فصار يرجع اليهِ لمعرفة كمية الرطوبة التي في الهواء لا غير وهذه المعرفة لا تفيد في الانباء بالطقس في مكان اكثر مما تفيد معرفة مقدار الضغط فيهِ . وعليهِ فالبارومتر والهيغرومتر سيَّان في ذلك

اما المراصد المتيورولوجية الكبيرة فتعوّل على طريقة حديثة للانباء بالطقس نتجت من البحث الدقيق في المتيورولوجيا العلمية والعملية اي من مراقبة الاحداث الجوية نفسها واستقرائها وعليهِ فان اساسها صحيح يركن اليهِ . واهمُّ ما في ذلك الاساس ان لحالة الطقس علاقة شديدة بتوزع ضغط الهواء وان الطقس في مكان لا يعرف من معرفة ضغط الهواء فيهِ وحدهُ كما يدلُّ البارومتر عليهِ بل من معرفة الضغط في بقعة واسعة جدًّا في وقت واحد وساعة

واحدة فلابدَّ من المراصد المتيورولوجية التي يرصد بها ضغط الهواء دوامًا

هذا وقد ظهر بالبحث ان توزع ضغط الهواء يختلف على صور شتى يمكن ضمها تحت ابواب معلومة وثبتت القضايا الآتية وهي

(١) ان الطقس يتوقف على توزُّع ضغط الهواء فالطقس الذي نراهُ الآن في مكان ما يعود في وقت آخر اذا اتفق ان كان توزع ضغط الهواء كما كان اولاً

(٢) ان طقس مكان ما يعرف من نسبة ذلك المكان الى ما حولهُ من الامكنة التي يعرف توزع ضغط الهواء فيها

(٣) اذا عرفنا ما يكون عليهِ توزع الضغط في يوم مستقبل او في وقت مستقبل استطعنا الانباء بطقس ذلك اليوم او الوقت قبل مجيئهما

(٤) ان التغيير الذي يطرأُ على طقس مكان ما بالنسبة الى موقعهِ الجغرافي هو واحد دائمًا

فهذه القضايا استنتجت من الارصاد المدققة واتخذت اساسًا للانباء بالطقس. ثم انهُ لا بدَّ للانباء بالطقس من معرفة احوالهِ في كلّ مكان ومعرفة ما يتعلَّق عليهِ توزع ضغط الهواء. وهناك امر آخر تجب معرفتهُ للانباء بطقس فصل مقبل وهو اي نوع من انواع توزع الضغط يكون في ذلك الفصل. وهذه المعرفة هي النقطة الاولى التي يتوقف الانباء بالطقس عليها. فاذا استحالت استحال علينا الانباء بالطقس ايضًا. واذا عرفناها على وجه التقريب امكننا الانباء بهِ على وجه التقريب. واذا عرفناها معرفة باتَّة قطعية امكننا الانباء بهِ على وجه باتّ قطعي. وهي الغاية القصوى لعلم المتيورولوجيا وكثيرون من العلماء يشكّون في ما اذا كان بلوغها ممكنًا ويؤيدون شكوكهم بحجج قويَّة

ومما تجب الاشارة اليهِ ان علماء المتيورولوجيا لا يعترفون ان لجرم من الاجرام السموية علاقة بالارض الَّا الشمس ويقولون ان حرارتها الواصلة الى الارض والهواء هي السبب الوحيد في تقلبات الطقس. فان الشمس هي التي تسبب الصيف والشتاء وما يتبعهما من حرّ وبرد وتبخُّر ومطر وثلج وبرَدٍ وريح وعاصفة. وقد ثبت لهم انها السبب الاعظم في ما يسمى بطقس الارض ان لم تكن السبب الوحيد فيهِ فانهم لم يهتدوا بعد الى سبب آخر صحيح مع شدة بحثهم وتنقيبهم. اما القائلون ان للقمر وسائر الاجرام السموية علاقة بطقس الارض فلم يؤيد احد منهم قولهُ بدليل صادق بل يعتمدون على ما يحدث احيانًا صدفةً واتفاقًا. ولو فرض ان الصدفة صحت في ٥٠ مرة من كلّ مئة فذلك لا يصيرها قاعدة يركن اليها بل لا يزال بينها وبين الحقائق العلمية شقق مترامية وهوة لا يسبر غورها

واعظم بلدان الارض اهتمامًا برصد القطس ومراقبة ما يطرأُ عليهِ الولايات المتحدة الاميركية فانها سبقت سائر الممالك المتمدنة في ذلك كما سبقتها في الزراعة والصناعة والتجارة وحكومتها تنفق مليونًا ونصفًا من الريالات على المراصد المتيورولوجية فيها وهو اكثر مما تنفقهُ سائر الامم المتمدنة كلها معًا على مراصدها ولكنَّ الاميركيين يربحون من ذلك ربحًا جزيلاً فقد قُدِّر متوسط المال الذي يجنونهُ كلَّ سنة بسبب المراصد المذكورة بثلاثين مليون ريال اي ان كل ريال ينفقونهُ على هذه المراصد يربح ٢٠ ريالاً

اما ما تفعلهُ المراصد فانها ترقب انهار البلاد المعروفة بفيضانها فتنبئ الاهالي بدنوّ الفيضان لئلاَّ يؤْخذوا على غرة . فقد تعلَّم رجالها بالاختبار والحساب المدقق ان يعرفوا العلامات المنذرة بارتفاع الماء في الانهر او هبوطهِ واقاموا مقاييس الامطار في كلِّ جهة من جهات البلاد حتى صاروا يعلمون مقدار الماء الذي ينصبُّ الى كلِّ نهر ومقدار ما يسعهُ النهر منهُ ومواطن القوة والضعف من سدود كل نهر وضفافهِ فاذا اشتدَّ وقوع الامطار وبلغ السيل الرُّبى عرفوا اين يخشى على النهر ان ينصدع فانذروا الاهالي بالخطر

ومن اصدق الشواهد على ذلك انباؤُهم بالفيضان الهائل الذي طما سنة ١٩٠٣ . فان رجال مرصد وشنطون انذروا اهالي نيو اورليانس بهِ قبل وصولهِ اليهم بثمانية وعشرين يومًا وقالوا ان معظم ارتفاعهِ يبلغ ٢١ قدمًا . فطغى في الساعة التي عينوها تمامًا وارتفع حتى بلغ ٢٠ قدمًا و ٧ بوصات اي اقلَّ مما انبأُوا بهِ بخمس بوصات لا غير وكان منشأُ هذا الفيضان في بلاد مساحتها نحو ٣٠٠ الف ميل مربع وتبعد عن مدينة نيو اورليانس الف ميل ولكن الراصدين عرفوا سرعة جريانهِ كما يعرف سائق القطار سرعة قطارهِ . وانبأُوا اهالي مدينة ممفيس انهُ يرتفع الى علوّ ٤٠ قدمًا عندهم ويفيض على الجوانب وانذروهم بذلك قبل حدوثهِ بسبعة ايام . فهبَّ الناس الوفًا يعززون جوانب النهر فلا يغمرهم السيل وينقلون النساء والاولاد والماشية الى حيث يؤْمن الخطر فلما أقدمَ الآتيُّ الجارف وجدهم مستعدين للقائهِ فلم يجرف منهم سوى القليلين ومع ان خسارة الاملاك كانت عظيمة الَّا انها كانت اقلَّ بملايين الملايين من الخسارة التي كانت تلمُّ بهم لو لم يتحوطوا للشرّ قبل وقوعهِ

ومن فوائد تلك المراصد الانباء بالصقيع الذي كثيرًا ما ينتاب البلاد في اوائل الربيع والخريف فيهرأُ المزروعات ويترك الارض جرداء ربداء وقد يفسد في ليلة مواسم السنة ويذهب بآمال الفلاح ويغادرهُ خاوي الوفاض . فاذا درى الفلاح بهِ قبل وفودهِ تداركهُ بما لديهِ من الوسائل لتقليل ضررهِ كتغطيتهِ مزروعاتهِ واشجارهُ باغطية تقيها منهُ . والمراصد تنذر

الاهالي بالخطر قبل وقوعهِ بيوم كامل على الاقل فاذا آنستهُ في الهواء بعثت بالوسائل البرقية والتلفونية الى حيث يتوقع حتى لقد يزيد عدد تلك الوسائل على مئة الف في ساعات قليلة . وبهذه الواسطة سلم من الصقيع الذي انتاب البلاد سنة ١٨٩٨ ما قيمتهُ نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون ريال من الاثمار

ومن اعظم فوائدها الإنباء بالزوابع . فان الرياح الشديدة تثور على سواحل اميركا بين شهري اكتوبر وابريل والعواصف تهبُّ من الهند الغربية في شهري اوغسطس وسبتمبر فتجتاح ما في البرّ طولاً وعرضاً وما في البحر من السفن الماخرة ذهاباً واياباً بين موانىء الساحل . فالمراصد تعلم بالزوبعة لاول ثورانها فتنذر الاهالي بها وترفع الاشارات في كلّ مكان تحذيراً لهم منها . وكان ٧٥ في المئة من الخسارة الَّتي تلحق بالملاحة الاميركية في البحيرات الكبيرة سابقاً مصدرهُ هذه الزوابع فنقصت حتى صارت الآن ٢٥ في المئة

ومن اغرب ما يحكى عن فوائد السجلات التي تحفظها المراصد فيها ان رجلاً في ولاية ايلنويس اتُّهم بقتل امرأة وكان اعظم دليل على جنايتهِ شهادة عامل قال في شهادتهِ انهُ كان يحفر في الارض فعطش وكانت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر فصعد من الحفرة ليشرب من اناء كان هناك فالتفت الى كوة بيت فرأى المتهم يقتل المرأة فيهِ ثم فرَّ هارباً قبل ان يدركهُ . وكانت الشهادة صريحة وظهر انها قاطعة . ولكن المحامي عن المتهم قلَّب سجلات المرصد المتيورولوجي فرأى ان اليوم الذي ادعي على المتهم بارتكاب القتل فيهِ كان يوماً شديد البرد الى حد انهُ لو بقي الاناء الذي شرب الشاهد منهُ في الخلاء من الصبح الى الساعة الحادية عشرة كما قال لجمد كلهُ فلم يستطع الشرب منهُ . وكانت هذه البينة سبيلاً الى تبرئة المتهم ثم قامت الادلة التي ثبتت منها الجريمة على الشاهد نفسهِ

ومما تفعلهُ المراصد ان المكتب الرئيسي يصدر نشرات شهرية عن الحاصلات يقتطفها من تقارير الوف من الباحثين ويذكر فيها تأثير المطر او القيظ او البرد في القمح وغيرهِ من الحاصلات . ويصدر ايضاً نشرات عن سقوط الثلج في الولايات الغربية يذكر فيها مقدار ما سقط منهُ على الجبال ومقدار الماء الذي ينتظر في الصيف التالي لاعمال الري ونشرات خصوصية في كليفورنيا حيث يصنع الزبيب تنذر الفلاحين بالمطر فيستعدون لاتقائهِ لئلا يتلف موسمهم

وسعى اخيراً في اكتشاف طبقات الجوّ العليا بالبلون وذلك انهُ يصنع بلونات من اللستك يعلق بها آلات صغيرة تعرف بها احوال الهواء ثم يطلقها فتسير صعداً وتكبر كلما صعدت

وخفَّ ضغط الهواء الخارجي عنها حتى تبلغ علوَّ اربعة اميال او خمسة فينشق اللستك وتأْخذ البلونات في الهبوط رويداً رويداً بجهاز فيها يقيها من السقوط الفجائي حتى تصل الى الارض فيلتقطها الذين يرونها ويأْخذونها الى المراصد . وقد عينت المراصد جوائز لهم . والغرض من هذه البلونات معرفة مجرى الرياح في طبقات الجوّ العليا وهو ما لا يعرف الراصدون عنهُ الَّا القليل مع شدة اهميتهِ

وهو يسعى ايضاً في نشر تقارير عن تقلبات الهواء في عرض البحار مستعيناً على ذلك بالتلغراف الاثيري وينشر على الجمهور تقارير عن الجوّ وتقلباتهِ وخرائط يومية رسمت فيها البلاد كلها ودُلَّ على الاماكن المتشابهة في طقسها بخطوط تمرُّ فيها . فالمقيم في نيويورك يعرف كلَّ يوم اين تصطكُّ الركب برداً واين يتصبب الجبين عرقاً . وقس على ساكن نيويورك غيرهُ من اهالي الولايات . وهذه الخرائط تنشر ايضاً في ٢٥٠٠ جريدة يومية وترسل بالتلغراف او التلفون او تذاكر البوستة الى الوف من البورصات ومكاتب البوستة ومكاتب المطالعة وغيرها من الاماكن العمومية ليطلع الجمهور عليها

هذا ولم تهبَّ على الولايات المتحدة زوبعة منذ بضع سنين الَّا كانت المراصد قد انبأَت الاهالي بها فاحتاطوا لها . ولا نزل بها صقيع ولا طما فيها سيل الَّا كانوا عالمين بهما متهيئين للقائهما . ولما كانت الشمس السبب الاعظم في كل ما يطرأُ على جوّ الارض من الانقلاب ومصدر كلّ قوة وحركة في الارض (ما عدا المدّ) فان معرفة طبيعتها وماهيتها وعلاقتها بنا وتأْثيرها في كرتنا ترشدنا الى الانباء بالطقس تماماً او تقريباً . وعليهِ قرر مجلس الامة في الولايات المتحدة منح المكتب المتيورولوجي مالاً لبناء مرصد يُدرَس وجه الشمس منهُ ويجهز بجميع الآلات والادوات التي اخترعها الانسان لتلك الغاية . وهي خطوة تعدُّ اعظم ما خطاهُ الانسان لترقية علم المتيورولوجيا لانها ستكون مفتاح الانباء بالزوابع والعواصف وما يطرأُ على الارض من حرّ وبرد وقيظ وفيضان

هذا وعسى ان تقتدي الحكومة المصرية بالحكومة الاميركية فتزيد سخاءً على الارصاد الجوية ولا سيما عند منابع النيل وما حولها عسي ان تكشف احوالهُ بالتدقيق او يكشف القانون الذي يجري فيضانهُ عليهِ فتحوط البلاد للشرَق والغرق قبل حدوثهما

شذرات في الانشاء

[المقتطف. ذكرنا في جزء يونيو ان حضرة الفاضل محيي الدين افندي الخياط طبع ديوان ابي تمام بعد ان فسَّر الفاظهُ اللغوية. وقد اطلعنا في صدرهِ على فصل كبير الفائدة يتناول كثيرًا من المواضيع التي يبحث فيها الآن ادباء اللغة كحقيقة الشعر ونبوغ غير العرب فيهِ والشعر العصري والتعريب والتوسُّع في الاستعمال فرأينا ان نثبتهُ هنا برمتهِ تعميماً لنفعهِ مكررين الشكر لحضرة منشئهِ محيي الدين افندي الخياط راجين ان آراءهُ الصائبة تشجع كثيرين من كتَّاب العصر على كسر قيود التقليد]

الشعر

الشعر شعور لطيف احست بهِ الارواح قبل الاشباح ووجدان وجد مع الغرائز والفطر قبل الهيولى والصور يجري على الخواطر مجرى الكهرباء في مساري الهواء ويسيل في الضمائر مسيل الماء في ثنايا الادماء. فهو اشبه بسلك اثيري بين القلب والدماغ يسري على اهواء الضلوع وهذه تدفعهُ بقوتها المكهربة (تكهربًا معنويًا او حسيًا على الرأي الحديث) الى مركز الدماغ ومنها الى القوة الخيالية التصويرية ومن هناك تجذبهُ اسلة اللسان المغناطيسية فتحملهُ على جناح تموجاتها الهوائية (المجازية) الى عالم الآذان فيدخلها باستئذان او بلا استئذان

ما لنا وللخيالات والتصورات فالشعر روح غنائية دبت في كل امة وسرت منها الى كل طبقة «ان صح ان يطلق الشعر على كل ما يستفز الالباب ويستخف الارواح ويختلب الافئدة ويستهوي العواطف وان كان عاميًّا محضاً كالمواليا والزجل والقوما وكان وكان والمطاول والمغني وما يلحق بها من هذا القبيل مما يفوق البعض منهُ على اكثر الشعر الموزون» وانت خبير ان هذا هو الاصل في اشتقاق هذه اللفظة (الشعر) ولذا كانت جاهلية العرب في صدر الاسلام تذهب الى ان بلاغة القرآن الباهرة وفصاحتهُ المدهشة هما من الشعر وان القرآن الكريم كلام شعري لان رشاقة الاسلوب ومتانة الديباجة وابداع المفردات وحسن التصوير مما يهيج الفطرة الشعرية سواء كان الكلام موزونًا ام غير موزون

شيوع البلاغة في الشعر

ثم انهُ من الظلم الفادح والتحيز الفاضح ان تحصر البلاغة والفصاحة وحسن التصوير في امة دون امة او طبقة دون طبقة فانها حق شائع بين جميع الامم وما يحتكرها احتكار السلع الأ قليل الاطلاع قصير النظر في شؤون البشر لكن المتربع فوق قمة الادراك على بعد الفكر

والمشرف من سامق نظرهِ على سهوب هذه الشعوب والامم يعتقد ان الناس اكفاء وامثال في جميع المواهب الانسانية وانَّ بني الانسان في كل لسان هم من طينة واحدة وعنصر واحد او كما يقول النباتيون من فصيلة واحدة وانما تتفاوت المنازع والمشاعر واللغات نفسها بعض التفاوت اندفاعاً الى ما يطرأ عليها وعلى بنيها من الادوار والاطوار والبيئات في محيط هذه الكرة المحاطة بهذا الفضاء اللانهائي

نعم ان النابغين من الشعراء الذين يستحقون ان يطلق على كل واحد منهم لقب شاعر هم افراد قلائل في كل امة وفي كل جيل وهم الذين خُلقوا ليكونوا شعراء اي ان كيانهم الفطري حكم عليهم بان يكونوا شعراء مثل زهير في الجاهلية و ابي العلاء في الاسلام وعمر الخيام في الفرس وقد قيل عنهُ انهُ اخذ معاني ابي العلاء ونظمها بالفارسية وهي دعوى لا ينهض بها دليل لان الفضل لم يختص بامة ولا بلسان وتوارد الافكار من الامور المسلمة. ومثل هوميروس صاحب الالياذة في اليونان وهو الذي ذكرهُ ارسطو في كتاب المنطق واثنى عليهِ ومثل شكسبير في الانكليز وفيكتور هيغو في الفرنسيس وكمال في الاتراك وسواهم في سوى ما ذكرنا من الامم والشعوب

ويلحق بكل من هؤُلاء شعراء كثيرون معاصرون وغير معاصرين لهم وربما وجد من هو اقدر منهم على سبك الالفاظ ومتانة الديباجة وسلامة الاسلوب ممن هو اقوى عارضة وافصح لهجة غير ان روح الشعر التي وجدت في هؤُلاء مع صفاء الذهن وسمو المدارك ودقة الشعور وبُعد التصور والفلسفة العالية والحكمة الباهرة والترفع عن السفاسف جعلتهم يشرفون على شعراء الامم من مكان شاهق ومنزل سحيق

الشعر والعصر

الشعراء في كل امة وفي كل جيل طرأ على اكثرهم عصور وازمان كانوا فيها اصحاب السيطرة الحقيقية على الرأي العام لا سيما في الجاهلية والاسلام ولنا على هذه الجملة دلائل لا محل لسردها وعلى كلٍ فهم بلا شك عنوان الامة وممثلو تاريخها واحوالها الاجتماعية الاَّ ما شذ في بعض العصور التي اصبح بها الشعر تقليداً بحتاً لا يؤْخذ منهُ شيءٌ من الاحوال الاجتماعية بل ولا يصور اخلاق قائليهِ اذ اصبح عبارة عن قوالب لفظية بمعان تكاد تكون محصورة يفرغ عليها المشتغلون بالشعر جميع الصور والتماثيل التي انشأها قبلهم الشعراء الفطريون عن شعور حقيقي واحوال اجتماعية وجدوا فيها وتركوها لبني الاعصر التالية صورة لفظية معنوية باقية تمثل اخلاقهم وعاداتهم كما تمثل الآثار القديمة الخالدة اخلاق واحوال الامم البائدة

ويا ليت المقلدين وقفوا عند ذاك التقليد الصِرف الذي هو اشبه بترجيع الصدى او ترديد الببغاء او تمثيل الحاكي «الفونوغراف» لصور الالفاظ فانهُ كان على الاقل يحفظ لنا تلك الصور المجيدة او يحيي لنا بالاحتذاء ما درس من تاريخ الاباء بل هم تنزلوا عن تلك الذروة السامقة الى وهاد وشعاب حصروا فيها الشعر ضمن دائرة لا تكاد تجتاز ما درج عليهِ بعض الشعراء حتى هذا العصر من الغزل والمديح والتهنئة والرثاء فضلاً عن تنزلهم في الاسلوب والديباجة والمفردات الى درجة الرثاثة والابتذال

ان الجاهليين الذين نتمنى ان نحذو حذوهم كما يريدهُ الراغبون في بقاء القديم على قدمهِ والنافرون من كل جديد قد ضربوا من الشعر في كل مذهب وولجوا بهِ في كل مشعب فترى شعرهم يضم بين اعاريضهِ وضروبهِ الوصف والترسُّل والتغني والتغزل والمدح والهجاء والعتب والرثاء وتدوين الاخبار وضرب الامثال ووضع الحكم والتنافر والتفاخر والحض والتهييج. كل ذلك بسائق الوجدان ودافع الشعور بلا تكلف ولا تقليد الى ما يقع تحت الحس وتكاد تلمسهُ النفس. وهذا كل ما يريدهُ العصريون فهم لا يريدون ان يأتوا ببدع جديد بل يريدون الرجوع بالشعر الى ما خطهُ شعراء الفطرة البدويون الذين تفننوا بوصف الناقة والجمل والسهل والجبل والفرس والغزال والهودج والظعن والاسد والنمر والسيف والرمح والقوس والسهم والفلك والنجم الى سائر ما وقع تحت اعينهم من الجمادات والحيوانات والطيور وما وطئتهُ اقدامهم من سباسب وقفار ومنازل وديار واطلال وآثار ورياض واشجار وجداول وانهار واضعين لكل مسمًّى اسماء تكاد تجتاز حد الحصر ويعجز او عجز عن الزيادة عليها شعراء الدهر. نعم ان تلك الاسماء صفات لكن اكثرها غلبت عليهِ الاسمية وهي على كل حال تدل على مبلغ تفننهم وتلاعبهم في المفردات والمواضيع كما يريد العصريون الذين يرون امام حسهم البخار يحملهم على جناح البحار ويقلهم في الصحارى والقفار على ما لا يكاد يوجد لهُ اسم غير القطار (وهو قديم) بدلاً من تلك النوق او السفن البرية التي كانت تمخر في عباب القفر وتعلو اسماؤُها واوصافها عن الحصر

فلا بدع بعد هذا اذا نزع الشاعر العصري الى التفنن بالقطار ووصفهُ كما تفنن اسلافهُ البدويون بوصف تلك النجائب ترتك على الربى والسباسب وان شغلتهُ الحضارة عن اختراع الاسماء فقد يتيمم بالتراب مَن فقد الماء

ثم هم يرون الآن امام اعينهم الاسلاك البرقية والاثيرية وما ظهر او سيظهر من غرائب الكهرباء في هذه الدكناء وما بين تلك الزرقاء فلا غرو حينئذٍ اذا مالوا الى التلاعب

باوصافهم كما كان اسلافهم روّاد الكلإِ وورّاد الماء يتلاعبون بوصف الودق والبرق والسماء والماء والمنزل والدار والاطلال والآثار

ثم هم يرون الآن ما يسمونهُ بالفونوغراف والسنغراف والفوطوغراف والاتوميبل والبالون وادنابها مما لاتكاد تجد لهُ اسمًا واحدًا فضلاً عن اسماء متعددة فلا عجب بعدها اذا ذهبوا في اوصافها كل مذهب كما كان آباؤُهم الجاهليون يتشعبون بوصف الطيور والاصوات وتدوين الاخبار والوقائع وضرب الامثال كلٍ مشعب

ثم هم يرون جيرانهم من الامم يجدّون وراء العلم ومرافق الحياة وغضارة العيش او ما يسمون مجموعهُ بالتمدن فلا غرابة بعد هذا وذاك اذا قاموا الى حض بني قومهم وقبيلهم واستنفارهم لمجاراة جيرانهم في كل عمل نافع لهم ولشعبهم غير مباين لعاداتهم وتقاليدهم مذكرين لهم بمجد آبائهم على لسان الشعر كما كان اسلافهم سكان بيوت الشعر يتفاخرون ويعددون احساب قبائلهم ويتناشدون اشعار الحماسة والفخار والحض والاستنفار في مواسمهم ومجامعهم في تلك القفار

وخلاصة القول اننا اذا دققنا النظر وعرفنا الغاية من الشعر حكمنا بان شعراء البادية الفطريين هم الشعراء العصريون الحقيقيون ولو نفخ الله في ارواحهم ورأوا ما رأى العصريون لما عدمنا للقطار وامثالهِ من المخترعات العصرية والمكتشفات الوفًا من الاسماء والصفات ولكانت لنا من الشعر صورة مجسمة لتاريخ هذا العصر تبقى ما بقي الدهر ولنا الآن من رجال النهضة الشعرية الحديثة ما يسد هذه الثلمة ويضمن لنا سير اللغة والشعر عن النقطة التي نفت بعض ظروف العصور بالوقوف عليها

اللغة والتوسع في الاستعمال

ثم لابد لنا هنا من التنبيه على امرٍ ذي بال وهو ان اللغة العربية لاتحيا الحياة الطيبة ولا تنتشر انتشارًا واسعًا في هذا العصر الاَّ باستعمالها دون اعنات ولا تضييق على الوجه الذي اتصل بنا من ابنائها الاولين تقبل الدخيل فتعرّبهُ وتعدهُ منها وتتصرف بهِ وتتوسع في المجاز والاستعمال كما توسع ابناؤُها الاصليون بشرط ان تكون خالصة من شين اللحن ورثاثة الاسلوب وان تتجافى عن التقعر في انتقاء الالفاظ الحوشية القلقة المهجورة وان تبتعد عن الاغراب او "المعاظلة" على رأي البيانيين في التركيب وان لا يسرع المشتغلون بها الى اعتقاد الخطإِ في ما يتراءى لهم انهُ مخالف لما تعلموهُ من الرسوم او القواعد التي وضعها الواضعون على حسب ما اتصل بهم من كلام ابناء اللغة الاولين اذ الناقد البصير يعلم ان تلك الرسوم او القواعد غير ضابطة وغير مستقصية لانهُ لم يتصل بواضعيها الاَّ القليل من كلام ابناء اللغة الاولين

كما حققهُ المحققون. وما اتصل اليهم مما خالف تلك الرسوم سموهُ شاذًّا ثم لم يجيزوا ان يقاس عليهِ

الدخيل

ترى بعض الكتبة او الشعراء يأبى او يأنف من استعمال الدخيل الذي لهُ مرادف في العربية ولم يعلم ان القرآن الكريم نفسهُ استعمل الدخيل مع وجود المرادف لهُ وقد نسج على منوالهِ جميع كتَّاب العربية وشعرائها بلا استثناء ولعل اكثرهم يخفى عليهِ ما استعملهُ والّا فايّ لفظ دخيل يتعذر وضع مرادف لهُ لكن النزوع الى المرادف قد يفضي بعض الاحيان الى الاعنات فضلاً عن ان الدخيل مما يزيد في ثروة اللغة ولا يجعلها ضمن دائرة مفرغة الحلقات وان كانت هي من اغنى اللغات . وذلك الآن هو شأن اللغات الحية التي تقبل كل دخيل على انها ان لم تقبلهُ اختيارًا فقد قبلتهُ وستقبلهُ اضطرارًا جريًا على الناموس الطبيعي العام . ولو بعث الله روح الشهاب الخفاجي (صاحب شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل وصاحب الانتقاد على درة الغواص) الى عالم الاحياء ورأى الالفاظ العصرية التي اوجدها العلم العصري الحاضر واطلع على تطور اساليب الكتابة وتوسع الكتبة في الاستعمال لضم الى كتابهِ الشفاء عدة كتب مؤلفة من الفاظ الفوطوغراف والفونوغراف والسنغراف والتلغراف والتلفون والغاز والاتومبيل والبالون والوابور والوف من اسماء الآلات الميكانيكية وسائر ما اخترع في هذا العصر وعد من ابكار افكار ابنائهِ ولزاد على انتقادهِ تلك الدرة درة الغواص دررًا ناصعة بالمجاز لامعة بالقياس والتوسع في الاستعمال . انتهى

[المقتطف] لا بدَّ من ان القارئ الكريم الذي قرأ نبذ الفصل المتقدم نبذةً نبذةً رأى فيها كلها ما ينطبق على ما تقرَّر في ذهنهِ بمطالعة المقتطف السنين الطوال وما يؤيدهُ كل عقل لم يقيدهُ الغرض ولاسيما النبذة المعنونة "باللغة والتوسُّع في الاستعمال" فان الكاتب اشار فيها الى ما تحيا بهِ اللغات وهو قبول الدخيل والتجافي عن الالفاظ المهجورة والابتعاد عن الاغراب . والنبذة المعنونة "بالدخيل" حيث قال ان القرآن الكريم نفسهُ استعمل الدخيل مع وجود المرادف لهُ وقد نسج على منوالهِ جميع كتَّاب العربيَّة وشعرائها بلا استثناء . والدخيل يزيد في ثروة اللغة وهذا شأن اللغات الحيَّة التي تقبل كل دخيل على انها ان لم تقبلهُ اختيارًا فستقبلهُ اضطرارًا جريًا على الناموس الطبيعي العام

هذا والكتَّاب الآن بين من تراهُ واقفًا لهم بالمرصاد يعنّفهم على كل ما يعدهُ خارجًا عن قيود اللغة وبين الناموس الطبيعي الذي يوجب التغيير والتبديل والنمو والاندثار والزيادة والنقصان مع حفظ النوع جملة . وسيكون الفوز للاصلح على كل حال

تاريخ محمد علي باشا

تولَّى محمد علي باشا والفوضى ضاربة اطنابها في البلاد والجهل مخيّم عليها وفيها من الامراء والعظماء والجنود الوف لاهمّ لهم الاَّ اشباع بطونهم باية واسطة كانت يستحلّون كل محرَّم ولا يرعون لاحد حرمةً وان شذَّ منهم احد واهتدى الى طرق المكارم وحاول الارعواء عن المحارم سفَّه قومهُ رأيهُ واقصوهُ وامتهنوهُ . ولشدَّة ما عانى الناس من الجور والهوان الفوهما وصار همُّهم الاكبر ان يكيلوا للذين دونهم كما يكيل لهم الذين فوقهم لا يُستثنى من ذلك احد ممَّن لهم ذكر حتى العلماء وحملة الشريعة الاَّ واحدًا او اثنين

ولم يكن محمد علي من طينة غير طينة ابناء نوعهِ ولكنهُ كان اعلى منهم همَّةً واوسع حيلةً مذهبهُ قول ابي تمام السيف اصدق انباءً من الكتب وسياستهُ في البلاد سياسة الاميركيين في الارض التي يريدون احياءها يقطعون اشجارها ثم يقلبونها ويحرثونها قبل زرعها واستثمارها. خدمهُ السعد بموت خصومهِ او بنفوذ حيلهِ فيهم وبامتداد اجلَهِ فليَّن الدهر طباعهُ وعلَّمهُ الاختبار كيف يصطنع الناس ويستفيد منهم ثم يصلح البلاد ويدخل اليها اسباب العمران ليكثر خيرها لهُ ولولدهِ

وليس من غرضنا ان نذكر حوادث ولايتهِ بالتفصيل لانها كانت كثيرة تضيق عن استيفائها المجلدات بل ان نشير الى بعض الامور الكلية التي يُستدلُّ منها على احوال ولايتهِ بنوعٍ عام وعلى مجمل ما فعلهُ في هذه البلاد من حين تولاها الى ان تولاَّهُ الفناء

وبديهي انهُ لم يرسم لولايتهِ خطة معلومةً جرى عليها بل سار منقادًا بمقتضى طبعهِ واحوال زمانهِ. ولا بدَّ من انهُ عرف سيرة نبوليون وكان يسمع عن افعالهِ وتدويخهِ ممالك اوربا فسوَّلت لهُ نفسهُ ان يقتدي بهِ. وكان غرَضهُ في اول الامر ارضاء الدولة العلية ولإرضائها سبيلان لا بدَّ منهما الاول تعمير خزينتها ولو سلب في هذا السبيل كل ما يملكهُ اهالي مصر من نقود وحلي وامتعة ولو باع اطيانهم ومواشيهم وباعهم هم عبيدًا. وكانت لا تكتفي بل تطلب المزيد فاذا جاء من يدفع اليها ازيد من ذلك اعطتهُ الولاية . والثاني تأمين طريق الحج وارسال المرتبات الى الحرمين الشريفين حتى تبقى للدولة السيادة الدينية على رعاياها لانها هي الرابط الوحيد بينها وبينهم . فما دام الوالي يجمع الاموال الوافرة ويؤمن طريق الحج ويرسل النفقة الى الحرمين فهو قائم بكل ما يُطلب منهُ ولا يُسأَل كيف جمع المال ولا كيف امَّن الطريق . اما اقامة العدل ونشر لواء الأَمن وتعضيد الزراعة وتأمين التجارة

والاعتناء بصحة الاهلين ونحو ذلك مما يهتم به ارباب الممالك الآن بل مما كان الفرنسويون يهتمون به وهم في هذه الديار فلم يكن لها ذكر او اشارة حينئذٍ لا فعلاً ولا اسماً ولذلك اعجب الجبرتي بذكر محاكمة الرجل الذي قتل الجنرال كلابر فذكرها بالتفصيل ونوَّه بها واتخذها وسيلة للتوبيخ والتعزير كما تقدَّم

ورأى محمد علي ان بقاءهُ في الولاية لا يدوم ما لم يكن مورد اموال البلاد في يدهِ فاذا كان لهُ منازع او مزاحم فيهِ فلا هو يستطيع ان يجمع القدر الكافي ولا المزاحمون يمتنعون عن المزايدة واخذ الولاية منهُ . وكان المماليك اكبر مناظريهِ في ابتزاز الاموال فلا يتركون لهُ نصفها ولا اقل من نصفها وكاد واحد منهم وهو محمد بك الالفي يفوز عليهِ في مرضاة الدولة واخذ الولاية منهُ فانهُ لم يكد يمر عليهِ سنة فيها حتى عزلتهُ الدولة بسعي محمد بك هذا وارسلت اليها والياً اسمهُ موسى باشا وامرتهُ ان يقيم في القلعة فتكون الولاية لهُ بالاسم ويعود المماليك الى سالف عهدهم وتكون ولاية البلاد في يدهم فعلاً وذلك كلهُ لقاء الف وخمسمائة كيس تعهَّد الالفي بدفعها نقداً ثم اذا كانت الولاية في يدهِ ويد رفاقهِ توالت المزايدة بينهم عليها لا كما اذا كانت لوالٍ واحد . فرأى محمد علي انهُ لا يفوز على الالفي الَّا بان يزيد عليهِ فيدفع الى الدولة اكثر مما وعدها الالفي بهِ وهذا لا يستطيعهُ ما لم يوافقهُ كبراء البلاد عليهِ فتودَّد اليهم وتلطَّف وزار المشهد الحسيني في عيدهِ وتغدَّى عند السيد السادات واكثر من الركوب والطواف في شوارع المدينة وحسَّن للعلماء حتى كتبوا عريضةً الى السلطان افرغوا فيها جعبة فصاحتهم وبيانهم وظنوا ان البلاغة تفعل فعل الدينار وهي بنصها نقلاً عن الجبرتي

"بسم الله الرحمن الرحيم الرؤُف الحليم الحمد لله ذي الجلال على جميع الشؤُون والاحوال نرفع اليك اكفًّا من بحر جودك مغترفة ونتوجه الى كعبة فضلك بقلوب بخالص الوحدانية معترفة ان تديم بهجة الزمان ورونق عنوان اليمن والامان بدوام وزير تخضع لمهابتهِ الرقاب وتدنو لهمة سطوتهِ المهمات الصعاب منتهى آمال المقاصد والوسائل ومحط رحال المطالب من كل سائل حضرة صدر الصدور ومدبر مهمات الامور الصدر الاعظم محمد علي باشا ادام الله دعائم العز بقيامهِ وفسح للانام في ايامهِ محفوظاً بعناية الرب الكريم محفوظاً بآيات القرآن العظيم آمين . اما بعد رفع القصد والرجاء ومد سواعد الخضوع والالتجاء فاننا ننهي لمسامعكم العلية وشيم اخلاقكم المرضية بانهُ قد قدم حضرة الدستور المكرم والمشير المفخم مدبر مهمات الاسكلات البحيرية وخادم الدولة العلية الوزير قبودان باشا الى ثغر سكندرية فارسل كتخدا البوابين سعيد اغا وصحبتهُ الامر الشريف الواجب القبول والتشريف المعنون بالاسم الهمايوني العالي

دامت مسراتهُ على ممر الدهور والاعوام والليالي. فاوضح مكنونهُ وافصح مضمونهُ بانهُ قد تطاولت العداوة بين الوزير محمد علي باشا وبين الامراء المصريين فتعطلت مهمات الحرمين الشريفين من غلال ومرتبات وتنظيم امر الحج على حكم سوابق العادات والحال انهُ ينبغي تقديم ذلك على سائر المطلوبات وان هذا التأخير سببهُ كثرة العساكر والعلوفات وترتب على ذلك لكامل الرعية بالاقاليم المصرية الدمار والاضمحلال وانهت الامراء المصرية هذه الكيفية لحضرة السدة السنية وانهم يتعهدون بالتزام جميع مرتبات الحرمين الشريفين من غلال وعوائد ومهمات واخراج امير الحج على حكم اسلوب المتقدمين مع الامتثال لكامل ما يرد من الاوامر الشريفة الى ولاة الامور بالديار المصرية وانهم يقومون في كل سنة بدفع الاموال الميرية الى خزينة الدولة العلية ان حصل لهم العفو عن جرائمهم الماضية والرضا بدخولهم مصر المحمية والتمسوا من حضرة الدولة العلية قبول ذلك منهم وبلوغهم مأمولهم فاصدرتم لهم الامر الهمايوني الشريف المطاع المنيف بعزل الوزير المشار اليهِ لتقرير العداوة معهُ ووجهتم لهُ ولاية سلانيك ووجهتم ولاية مصر الى الوزير موسى باشا وقبلتم توبتهم وان العلماء والوجاقلية والرؤساء والوجهاء بالديار المصرية الداعين لحضرة مولانا الخنكار ببلوغ المأمولات المرضية ان تعهدوا بهم وكفلوهم يحصل لهم المساعدة الكلية حكم التماسهم من اعتاب حضرة الدولة العلية. فامركم مطاع وواجب القبول والاتباع غير اننا نلتمس من شيم الاخلاق المرضية والمراحم العلية العفو عن تعهدنا وكفالتنا لهم فان شرط الكفيل قدرتهُ على المكفول ونحن لا قدرة لنا على ذلك لما تقدم من الافعال الشهيرة والاحوال والتطورات الكثيرة التي منها خيانة المرحوم السيد علي باشا والي مصر سابقًا بعد واقعة مير ميران طاهر باشا وقتل الحجاج القادمين من البلاد الروسية وسلب الاموال بغير اوجه شرعية والصغير لا يسمع كلام الكبير والكبير لا يستطيع تنفيذ الامر على الصغير وغير ذلك مما هو معلومنا وبمشاهدتنا خصوصًا ما وقع في العام الماضي من اقدامهم على مصر المحمية وهجومهم عليها في وقت الفجرية فجلاهم عنها حضرة المشار اليهِ وقتل منهم جملة كثيرة فكانت واقعة شهيرة فهذا شيء لا ينكر فحينئذٍ لا يمكننا التكفل والتعهد لاننا لا نطَّلع على ما في السرائر وما هو مستكن في الضمائر فنرجو عدم المؤاخذة في الامور التي لا قدرة لنا عليها لاننا لا نقدر على دفع المفسدين والطغاة والمتمردين الذين اهلكوا الرعايا ودمروهم فانتم خلفاء الله على خليقتهِ وامناؤه على بريتهِ ونحن ممتثلون لولاة اموركم في جميع ما هو موافق للشريعة المحمدية على حكم الامر من رب البرية في قولهِ سبحانهُ وتعالى يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فلا تسعنا المخالفة فيما يرضى الله ورسولهُ

فان حصل منهم خلاف ذلك فكل الامر فيهم الى مالك الممالك لان اهل مصر قوم ضعاف وقال عليهِ الصلاة والسلام اهل مصر الجند الضعيف فما كادهم احد الاَّ كفاهم الله مؤنتهُ وقال ايضاً وكل راعٍ مسؤُول عن رعيتهِ يوم القيامة. ونفيد ايضاً حضرة المسامع العلية من خصوص القرَض والسلف التي حصل منها الثقلة للاهالي من حضرة محسوبكم الوزير محمد علي باشا فانهُ اضطرَّ اليها لاجل اغراء العساكر وتقويتهم على دفع الاشقياء والمفسدين والطغاة المتمردين امتثالاً لاوامر الدولة العلية في دفعهم والخروج من حقهم واجتهد في ذلك غاية الاجتهاد رغبة في حلول انظار الدولة العلية. فالامر مفوَّض اليكم والملك امانة الله تحت ايديكم نسأل الله الكريم المنان ان يديم العز والامتنان لسدة السلطان مع رفعة تترشح بها في النفوس عظمتهُ وسطوة تسري بها في القلوب مهابتهُ وان يبقي دولتهُ على الانام وان يحسن البدء والختام بجاه سيدنا محمد خير البرية وآلهِ وصحبهِ ذوي المناقب الوفية" انتهى

ولم يكتفِ محمد علي بذلك بل وعد كبراء العلماء بالتزام الاقاليم فيملأُوا جيوبهم من اموال اخوانهم المساكين وهذا هو الطلسم الذي كان يفتح بهِ الكنوز

وكان محمد بك الالفي قرماً عنيداً حسن النظر في العواقب لا تجوز عليهِ الحيل ولا يصطلي لهُ بنار ولو لم يعاجلهُ القدر لتغيَّر حال هذا القطر حتماً. قال الجبرتي ذهبت اليهِ (بعيد خروج الفرنسوية من مصر) فوجدتهُ جالساً على السجادة فجلست معهُ ساعةً فدخل عليهِ بعض امرائهِ يستأْذنهُ في زواج احدى زوجات مَن مات من اخوانهِ فنترفيهِ وشتمهُ وطردهُ وقال لي "انظر الى عقول هؤُلاء المغفلين يظنون انهم استقروا بمصر ليتزوجوا ويتأَهلوا مع ان جميع ما تقدم من حوادث الفرنسيس وغيرها اهون من الورطة التي نحن فيها الآن". ولما اطلق الوزير (يوسف باشا) لابرهيم بك الكبير التصرف والبسهُ خلعة وجعلهُ شيخ البلد كعادتهِ وان اوراق التصرفات في الاقطاعات والاطيان تكون بختمهِ وعلامتهِ اغترَّ هو وباقي الامراء بذلك وازدحم الديوان ببيت ابرهيم بك المرادي وعثمان بك حسن والبرديسي وتناقلوا الحديث فذكروا ملاطفة الوزير ومحبتهُ لهم واقامتهُ لناموسهم. فقال لهم محمد بك الالفي "لا تغتروا بذلك فانما هي حيَل ومكايد فانظروا في امركم وتفطنوا لما عساهُ يحصل فان سوء الظن من الحزم". فقالوا لهُ وما الذي يكون فقال ان هؤُلاء العثمانيين لهم السنون العديدة والازمان المديدة يتمنون نفوذ احكامهم وتملكهم لهذا الاقليم ومضت الاحقاب وامراء مصر ليس لهم معهم الاَّ مجرَّد الطاعة الظاهرة وخصوصاً دولتنا الاخيرة وما كنا نفعلهُ من منع الخزينة وعدم الامتثال. وقد ولجوا البلاد الآن وملكوها على هذه الصورة فلا يهون عليهم ان يتركوها لنا كما كانت

ويرجعوا الى بلادهم فدبروا رأيكم وتيقظوا من غفلتكم "

فلما سمعوا منهُ ذلك صادق عليهِ بعضهم وقال آخرون هذا من وساوسك وقال غيرهم هذا لا يكون بعد ما قاتلنا معهم ثلاث سنوات واشهراً بانفسنا واموالنا وهم لا يعرفون طرائق البلاد ولا سياستها فلا غنى لهم عنَّا . ثم قالوا لهُ وما رأيك الذي تراهُ قال الراي عندي ان نعدّي الى بر الجيزة وننصب خيامنا هناك ونجعل الانكليز واسطةً بيننا وبين الوزير والقبطان ونتمم الشروط التي نرتاح نحن وهم اليها بكفالة الانكليز ولا نرجع الى البر الشرقي ولا ندخل مصر حتى يخرج العثمانيون منها ويرجعوا الى بلادهم ويبقى منهم من يقلدونهُ الولاية والدفتردارية ونحو ذلك . فوافق على هذا الراي بعضهم ولم يوافق البعض الاخر وقالوا له " كيف ننابذهم ولم يظهر لنا منهم خيانة ونذهب الى الانكليز وهم اعداء الدين فيحكم العلماء بردتنا وخيانتنا لدولة الاسلام على انهم ان قصدوا بنا شرًّا قمنا باجمعنا عليهم وفينا ولله الحمد الكفاية وعند ذلك يتوسط الانكليز بيننا وبينهم فتكون لنا المندوحة والعذر " . فقال " اما الاستنكاف من الالتجاء الى الانكليز فان القوم (اي العثمانيين) لم يستنكفوا من ذلك واستعانوا بهم ولولا مساعدتهم ما قدروا على اخراج الفرنسوية من البلاد . وقد شاهدنا ما حصل في العام الماضي لما حضروا بدون الانكليز . على ان هذا قياس مع الفارق فان تلك مساعدة حرب واما هذه فهي وساطة مصلحة لا غير . واما انتظار حصول المنابذة فقد لا يمكن التدارك بعد الوقوع والرأي لكم " . فسكتوا وتفرقوا على كتمان ما دار بينهم

ولما رأى انهم لم يوافقوا على ما اشار بهِ انضمَّ الى رئيس الكتَّاب لقربهِ من الوزير واوهمهُ انهُ يستطيع ان يجمع اموالاً وافرة من الصعيد ان قلدهُ الوزير امارتهُ فانهُ يجمع تركات الاغنياء الذين ماتوا بالطاعون في العام الماضي وليس لهم ورثة ويجمع ايضًا الغلال والاموال الاميرية . فلما بلغ الوزير ذلك اسرع الى اجابتهِ لوجهين الاول الطمع في تحصيل المال والثاني تفريق شمل المماليك ونجح بعد ذلك في قتل كثيرين من رؤسائهم غيلةً . ثم ذهب الالفي الى بلاد الانكليز وعاد منها بالهدايا والتحف الكثيرة كما تقدم . قال الجبرتي ان مدة غيابهِ سنة وشهور وعاد وقد تهذبت اخلاقهُ بما اطَّلع عليهِ من عمارة بلادهم وحسن سياسة احكامهم وكثرة اموالهم ورفاهيتهم وعدلهم في رعيتهم مع كفرهم بحيث لا يوجد فيهم فقير ولا مستجدٍ وصارت مسامرتهُ لاخوانهِ بعد ذلك في ذكر العدل الموجب لعمارة البلاد وكان يقول لسليمان بك في التمثيل ان الانسان الذي لهُ ماشية يقتات هو وعيالهُ من لبنها وسمنها وجبنها يلزمهُ ان يرفق بها في العلف حتى تدرَّ وتسمن وتنتج لهُ بخلاف ما اذا اجاعها واجحفها واتعبها واشقاها

واضعفها حتى اذا ذبحها لا يجد فيها لحماً ولا دهناً هذا الذي اعتدناهُ وربينا عليهِ فان اعطاني الله سيادة مصر والامارة في هذا القطر لامنعنَّ هذه الوقائع واجري فيهِ العدل ليكثر خيرهُ وتعمر بلادهُ ويستريح اهلهُ ويكون احسن بلاد الله

وصادرهُ محمد علي بعد عودتهِ من بلاد الانكليز واستعان عليهِ بالمماليك انفسهم كما تقدَّم في الجزء الماضي حتى كاد يفتك بهِ فراسل الباب العالي واستعان بالانكليز وكان الوزير حينئذٍ محمد باشا السلحدار واصلهُ مملوك من مماليك السلطان مصطفى فسأل كم عدد مَن بقي من المماليك في مصر فقيل لهُ انهم يزيدون على الفين فقال ارى تمليكهم على شروط نشترطها عليهم اولى من تمادي العداء بينهم وبين هذا الذي ظهر من العسكر . فقرَّ الرأي على عزل محمد علي باشا من ولاية مصر وتولية موسى باشا على ان يدفع الالفي للخزينة الفاً وخمس مئة كيس معجلاً وجاء قبودان باشي الى الاسكندرية ومعهُ الوالي الجديد . وارسل محمد بك الالفي الى ابرهيم بك المرادي وعثمان بك البرديسي لكي يساعداهُ في دفع هذا المال ووعدهما بان تكون السيادة لهما

وبلغ محمد علي ذلك فراسل امراء المماليك وارسل اليهم الهدايا فوقعوا بين من يطلب منهم المال وبين من يدفعهُ اليهم فاختاروا العاجل على الآجل وخذلوا الالفي فظلَّ يمطل القبودان ويحارب رجال محمد علي منتظراً وصول الانكليز لمساعدتهِ الى ان ادركتهُ الوفاة بالهواء الاصفر فقال قضي الامر وخلصت مصر لمحمد علي لا مَن ينازعهُ ولا مَن يغالبهُ وقضي على المماليك فلا تقوم لهم راية بعد اليوم ثم اوصى ان يدفن في وادي البهنسا واسلم الروح ليلة الاربعاء تاسع عشر ذي القعدة سنة ١٢٢١ (٢٨ يناير سنة ١٨٠٧)

وكان القبودان قد رأى الانشقاق بين المماليك وانهم لا يستطيعون ان يقدموا لهُ المال الذي طلبهُ فعاد الى محمد علي ووعدهُ محمد علي باضعاف ما وعدهُ بهِ الالفي معجلاً ومؤجلاً فارسل الى محمد علي يأمرهُ بارسال عريضة يكتبها لهُ كبراء مصر من المشايخ وغيرهم فكتب العريضة وارسلها مع ابنهِ ابرهيم بك وارسل معهُ هدية حافلةً خيولاً واقمشة هندية ومفاد العريضة على ما في الجبرتي " ان محمد علي باشا كافل الاقليم وحافظ ثغورهِ ومؤمن سبلهِ وقامع المعتدين وان الخاصة والعامة راضون بولايتهِ واحكامهِ وعدلهِ والشريعة مقامة في ايامهِ ولا يرتضون سواهُ لما رأوا فيهِ من عدم الظلم ومن الرفق بالضعفاء واهل القرى والارياف... و يرجون من مراحم الدولة العلية ان تبقيهُ والياً عليهم لان جميع اهل البلاد صاروا في غاية من الراحة والامن برًّا وبحرًا بحسن سياستهِ وعدلهِ وامتثالهِ للاحكام الشرعية ومحبتهِ للعلماء واهل الفضائل والاذعان لقولهم ونصحهم " الخ . قال الجبرتي ولما كتبوا ذلك لم يطَّلع عليهِ الاَّ

بعض الافراد المتصدرين ولم يمكّنوا غيرهم من قراءتهِ بل كانوا يطلبون اختامهم فيختمونهُ بها واذا ابى احد ان يسلّم ختمهُ كتبوا اسمهُ وختموا تحتهُ بختم مشابه لاسمهِ . قال وهذا هو السبب في عدم نقلي صورتها تماماً

"ثم شرع في تقرير فريضة عظيمة على البلاد والقرى والتجار ونصارى الاروام والاقباط والشوام وسائر الناس ونساء الاعيان والملتزمين وغيرهم وقدرها ستة آلاف كيس لكي يهديها الى القبودان وقال انها سلفة لمدة ستة ايام ثم ترد الى اربابها فاتاهُ مرسوم من القبودان بيقائهِ والياً على مصر لان الخاصة والعامة راضية باحكامهِ وعدلهِ بشهادة العلماء واشراف الناس ولكن لايكون لهُ تعلق بثغر رشيد ولا دمياط والاسكندرية فان ايرادها من الجمارك يضبط للترسخانة السلطانية في اسلامبول . ويجب عليهِ ان يرضي الامراء المصريين (المماليك) ويمتنع عن محاربتهم ويعطيهم جهات يتعيشون بها". وسيتلى عليك كيف ارضى المماليك وكيف ساس البلاد

وفي اوائل سنة ١٨٠٧ وصلت بعض السفن الحربية الانكليزية الى الاسكندرية لكي تمنع رجوع الفرنسويين اليها وتعين المماليك على استرجاع الولاية ولكنها وصلت بعد موت الالفي باربعين يوماً ولم يكن فيها سوى خمسة آلاف جندي بقيادة الجنرال فرَيزر فدخلوا الاسكندرية ونظموا امورها احسن تنظيم على ما قال الجبرتي وذهبت فرقة منهم الى رشيد بقيادة الجنرال وكوب فدخلت المدينة وهي تظنها مستسلمة لها وانتشرت في شوارعها الضيقة فصوّب عليها الاهالي رصاص البنادق من كوى بيوتهم وسطوحها وقتلوا منها ١٦٥ نفساً واخذوا ٢٦٢ اسيراً ارسلوهم الى القاهرة وكان الجنرال وكوب بين القتلى فاضطرّ الذين بقوا من الحملة ان يفتدوا الاسرى بالخروج من الاسكندرية . وابدى محمد علي باشا في هذه النوبة من الحزم وحسن النظر في العواقب ما اشتهر بهِ بعدئذٍ . ثم لما عقد الصلح بينهُ وبينهم قدَّم لهم الهدايا من الخيول والاقمشة الهندية وخلع عليهم خلعاً وشيلاناً كشميرية وركب معهم الى الاسكندرية واستلم المدينة منهم ولم تكن من خطتهِ كما تقدم فصارت منها

وحاول الانكليز وهم في الاسكندرية ان يستعينوا بالمماليك فلم يفلحوا وقال واحد من امراء المماليك وكان اكثرهم جنداً اني مسلم هاجرت وجاهدت وقاتلت الفرنسوية فلا اختم عملي بالالتجاء الى الكفّار . وبذل محمد علي جهدهُ حينئذٍ في استرضاء المماليك قال الجبرتي انهُ ارسل اليهم المشايخ فقالوا لهم ان الانكليز تخاصموا مع سلطان المسلمين واغاروا على ممالكهِ وطرقوا ثغر الاسكندرية وقصدهم اخذ الاقليم المصري واذا تملكوا البلاد لا يبقون على احد من المسلمين

وحالهم ليس كحال الفرنسوية لان الفرنسوية لا يدينون بدين واما هؤلاء الانكليز فانهم نصارى على دينهم ولا تخفى عداوة الاديان ولا يصح منكم الانتصار بالكفَّار على المسلمين ولا الالتجاء اليهم. وذكروا لهم الآيات القرآنية والاحاديث النبوية . فاجابهم المماليك ان ما قلتموهُ وابديتموهُ نعلمهُ ولو تحققنا الامن والصدق من مرسلكم لحاربنا وقاتلنا بين يديهِ ولكنهُ لا يفي بعهد ولا بوعد وطالما غدر بنا وما مرادهُ بمصالحتنا الآن الَّا تأخيرنا عن الذهاب الى الانكليز. وبعد جدال طويل ذكرهُ الجبرتي مفصَّلاً قال ان المماليك انخدعوا وعقدوا الصلح مع محمدعلي. وكان مشايخ مصر وعلماؤُها ينعتون الانكليز بالكفَّار ويحضُّون الاهالي على محاربتهم وهم يرون بعيونهم ما تفعلهُ جنود واليهم بين ظهرانيهم قال الجبرتي انهُ لم يكد الانكليز يخرجون من رشيد حتى نزل الاتراك على الجماد وما جاورها واستباحوا اهلها ونساءها واموالها ومواشيها زاعمين انها صارت دار حرب بنزول الانكليز عليها وتملكها... ثم احاطت العساكر ورؤساؤهم برشيد وضربوا على اهلها الضرائب وطلبوا منهم الاموال والكلف الشاقة واخذوا ما وجدوا بها من الارزاق وقال . بُعيد ذلك " انهم افحشوا في التعدي على الناس في الاسكندرية بعد خروج الانكليز منها وغصب البيوت من اصحابها واخذ امتعتها بدعوى انهم انفقوا ما كان معهم في الجهاد ودفع الكفَّار"

اما المماليك فالظاهر مما كتبهُ الجبرتي مع تشيعهِ لهم ومما كتبهُ غيرهُ من كتاب العصر ان ارضاءهم لم يكن ميسورًا وتأْمن البلاد شرهم . ولكن ألم يكن في الامكان ارهابهم واخضاعهم ونفي بعضهم واستخدام البعض الآخر في بعض المصالح التي كانوا قادرين على القيام بها. هذه مسألة يعسر بت الحكم فيها الآن لان وجهيها وجيهان وكيفما كانت الحال لم يكن اغتيالهم على الاسلوب الذي اغتيلوا بهِ من الضروريات لاسيما وان سوء الادارة بقي متسلطًا على البلاد سنين كثيرة بعد اغتيالهم كما لو كانوا فيها . ولم تسكن القلاقل الَّا رويدًا رويدًا بعد ان ذهبت بالوف من النفوس كأن وباءً دخل البلاد وعاث فيها ثم انقرض منها بعد ان فتك بكل المعرَّضين لهُ من اهاليها ولم يسرع زوالهُ بإحراق بعض القرى والكفور

نكبة المماليك

اما نكبتهم فكانت على هذه الصورة . لما كان شهر صفر من شهور سنة ١٢٢٦ قلَّد محمد علي باشا ابنهُ طوسون باشا قيادة الركب الموجَّه الى الحجاز لقتال الوهابية وقال انهُ عازم على ارسال جنود الى الشام بقيادة شاهين بك الالفي لمساعدة يوسف باشا والي دمشق على استرداد الولاية من الجزار وطلب من المنجمين ان يختاروا وقتًا صالحًا لالباس ابنهِ خلعة السفر

فاختاروا لهُ الساعة الرابعة من يوم الجمعة (٦ صفر) فلما كان يوم الخميس ارسل المنادي ينادي في الاسواق ويدعو كبار العسكر والامراء المصرية الالفية وغيرهم ليحضروا الى القلعة ويركبوا امام الموكب وهم بافخر حللهم فلما اصبح يوم الجمعة ركب الجميع وصعدوا الى القلعة وصعد المماليك كلهم باتباعهم وجنودهم ودخل امراؤُهم على محمد علي باشا وحيوهُ وجلسوا معهُ حصّةً وشربوا القهوة فباسطهم في الكلام ثم سار الموكب على الوضع الذي رتبوهُ وكان الباشا قد اسرَّ الى بعض خواصهِ ما يريدهُ من الغدر بهم وقتلهم كلهم حتى اذا صار المماليك في المضيق المنحدر بين الباب الاعلى والباب الاسفل (باب العزب) أُغلق باب العزب في وجههم وكانت الجنود قد وقفت على جانبي الطريق على نقر الحجر والحيطان فصوبت عليهم رصاص البنادق فدهشوا واستلوا سيوفهم ولكن لم يمكنهم التقدم ولا التأخر ولا نفعتهم خيولهم وفراستهم فتيلاً فسلموا للقضاء وبقي الرصاص ينصبُّ عليهم الى ان قتل كثيرون منهم وتمكّن الباقون من الرجوع والوصول الى الساحة الوسطى فادركهم الحمام هناك فقتلوا كلهم وكل من تزيا بزيهم ولو لم يكن منهم. وفتشوا عمن تخلف منهم في القلعة ولم يخرج مع الموكب فاحتزوا رأْسهُ وظلَّ القتل مستحرًّا فيهم من الضحى الى ان مضت حصّةٌ من الليل ومثّلوا بكبارهم تمثيلاً شنيعًا . وانتشر الجنود في المدينة كالجراد يفتشون عنهم ويقتلونهم وينهبون البيوت ويهتكون الحرائر ويسلبون ما على النساء من الحلى حتى انهم ليقطعون زند المرأة اذا عسر عليهم نزع السوار منهُ . واصبح يوم السبت والنهب والقبض والقتل مستمرة وركب الباشا في الضحى وحولهُ امراؤُهُ الكبار مشاة وامامهُ الصفاشية والجاويشية بزينتهم وملابسهم الفاخرة والجميع مشاة ليس فيهم راكب سواهُ والفرح والسرور بقتل المماليك طافح على وجوههم فكان كلما مرَّ على ارباب الدرك ووقف وبخهم على النهب . وخرج اليهِ شخص من تجار المغاربة وصرخ في وجههِ وهو يقول " ايش هذا الحال وايش لنا علاقة حتي ينهبنا العسكر ونحن اناس فقراء مغاربة متسببون ولسنا مماليك ولا اجناد " . فوقف اليهِ وارسل معهُ نفرًا الى دارهِ فوجدوا فيها شخصين احدهما تركي والآخر بلدي وهما يلتقطان آخر النهب وما سقط من الناهبين فامر بقتلهما فاخذوهما الى باب الخرق وقطعوا رأْسيهما . ونزل ابنهُ طوسون واجتاز في المدينة وقتل واحدًا من الناهبين فانكفَّ العسكر عن النهب ولكن استمرَّ القبض على المماليك وكل من تزيا بزيهم فقتلوا كلَّ من وجدوهُ منهم ولو شيخًا هرمًا وارسلوا الى كشاف النواحي والاقاليم ليقتلوا كل من وجدوهُ فيها فجعلت رؤُوس القتلى ترد الى القاهرة من اليوم التالي وكانت توضع عند باب زويلة وباب القلعة . وقدَّر الجبرتي عدد من قتل من المماليك واجنادهم باكثر من الف نفس ولم ينجُ من الالفية الَّا احمد

بك زوج عديلة هانم بنت ابرهيم بك الكبير فانهُ كان غائبًا في ناحية بوش وامين بك فانهُ تسلق من القلعة وهرب الى ناحية الشام . وبقي من المماليك نفر عاودهم التنكيل وذهبت بقيتهم الاخيرة الى بلاد السودان فاستوطنتها وعاد البعض منها الى مصر في حالة يرثى لها من الفقر والذل . وانقرضت دولة عظيمة ابقت في القاهرة من آثار مجدها مالم تبقهِ دولة اخرى

قال الدكتور مندريشي وكان طبيبًا لمحمد علي انهُ دخل عليهِ حينئذٍ وهو في القلعة بعيد المذبحة وهنأهُ بفوزهِ على المماليك فلم يجبهُ بل التفت يمنةً ويسرةً لئلا يقوم احد من تلك الجثث المطروحة امامهُ وينتقم منهُ ثم طلب كأس ماء يبرد بهِ ظمأهُ لانهُ كان في اشد الاضطراب والقلق لئلا يفسد عليهِ عملهُ فتكون فيهِ آخرتهُ

ولما انقضى امر المماليك وجه محمد علي عنايتهُ الى اصلاح القطر المصري وقمع ثورة الحجاز وفتح بلاد السودان والاقتصاص من عبد الله باشا والي عكاء . وسنبسط الكلام على ما يتعلَّق بموضوعنا من ذلك في الجزء التالي

الة الطيران

جاء في السينتفك اميركان ان الدكتور مونتغومري من اساتذة كلية "سانتا كلارا" شرع منذ نحو عشرين سنة في الدرس والتنقيب حتى اكتشف امورًا جديدة عن الانتقال في الهواء تختلف عما هو معروف عند العلماء فصنع بمساعدة استاذ الطبيعيات في الكلية المذكورة آلة تربط بالبلون اذا ركبها الانسان وطار البلون بهِ ثم فصلت عنهُ هبطت براكبها الى الارض رويدًا رويدًا واستطاع ان يديرها كيف شاء وينزل بها حيث شاء على مقربة من المكان الذي هي فوقهُ

وفي اواخر ابريل الماضي اراد تجربتها للمرة الخامسة في مشهد عمومي وكان قد جربها اربع مرات قبلاً ولم يسمح بمشاهدتها الاَّ لنفر قليل . وكان النسيم عليلاً والشمس مشرقة فملئ البلون غازًا وركب الرجل الذي نيطت بهِ تجربة الآلة مثل السرج منها ورجلاهُ متدليتان كما تتدلى رجلا راكب الدابة ثم اطلق البلون فسار يشق العنان صعدًا وما زال يرتفع حتى غاب عن الابصار وبات الناس لا يرون منهُ غير نقطة سوداء في قبة السماء . ولما صار على علو اربعة آلاف قدم قطع الراكب الحبل الذي يصل البلون بالآلة فهبطت الآلة فجأة نحو مئة قدم ثم استعادت موازنتها واخذت تهبط رويدًا رويدًا وكانت حركتها اشبه بحركة ورقة ترمى الى اسفل والهواء ساكن هادئ"

اما الراكب فليبيّن ان الآلة طوع بنانهِ يديرها كيف شاء جعل يدور بها في شكل دائرة ثم يرتفع وينخفض و يتقدم ويتأخر و يأتي حركات اخرى اقنعت جمهور المشاهدين انهُ يستطيع ادارة الآلة كما تدار السفينة بالدفة او اسهل . وما زال كذلك حتى نزل في مكان يبعد ثلاثة ارباع الميل عن مكان الصعود وهو المكان الذي عيَّنهُ الاستاذ مونتغومري لينزل فيهِ وكانت المدة التي مرت بين صعودهِ ونزولهِ عشرين دقيقة ووصل الى الارض سليماً صحيحاً لم يمسهُ اقل اذى

اما الآلة فمؤلفة من نسيج رقيق منشور على قدد دقيقة من خشب مرن على هيئة جناحين طولها ٢٤ قدماً ومساحتهما ١٨٥ قدماً مربعة . ويتصل بهما من خلف شبه دفة يرتفع الراكب بها او ينخفض وثقل الآلة كلها ٤٢ رطلاً مصريًّا والراكب ١٥٦ رطلاً

وقد دلّت هذه التجربة على ان قضية الطيران خطت خطوة جديدة في سبيل الحل اي انهُ امكن اختراع آلة تعوم في الهواء وتهبط الى الارض رويدًا ويديرها الراكب على هواه وهي تهبط بهِ . ولكن لا يزال هناك عقبتان كؤودتان لا بدّ من تمهيدهما قبلما يصير الطيران ممكنًا الاولى الاستمرار على الطيران مدة طويلة والثانية ارتفاع الآلة عن الارض من نفسها بلا مساعدة البلون . اما العقبة الثانية وهي صعود الآلة في الهواء من غير بالون فيدعي رجل برازيلي اسمهُ القارس انهُ يكاد يذللها فانهُ صنع طيارة لها جناحان كجناحي الطائر وهي خفيفة جدًّا ومتينة جدًّا حتى يضع فيها اقوى ما يكون من القوة ويبقى ثقلها على اخفهِ ومساحة جناحيها لاتزيد على ٤٠٠ قدم مربعة وفيها آلة بخارية تدير مروحتين قطر كلٍّ منهما خمس اقدام ٢٤٠ دورة في الدقيقة وقوة الآلة البخارية مثل قوة حصانين وهي تدور ١٦٠٠ دورة في الدقيقة وقوة حركتها كافية لحمل ١٥٠ رطلاً مصريًّا لا غير . وقدجربت بالامس فوضعت فيها اجسام ثقلها ١٥٠ رطلاً وربطت ببالون عادي وطار البالون بها الى ان صار ٣٠٠٠ قدم فوق سطح الارض حينئذٍ اديرت آلة الطيارة وقطع اتصالها بالبالون وبقي الذين في البالون يرقبون حركاتها وهي نازلة وكذلك الجمع المجتمع تحتها على الارض فهبطت اولاً بغتةً في خط عمودي ثم سارت في خط افقي مائل مسافة ميل الى ان وصلت الى الارض . وفي عزم مستنبطها ان يصنع طيارة اكبر منها كثيرًا ويضع فيها آلة قوية تكفي لرفعها عن الارض وهي حاملة رجلاً او اثنين . فاذا تمكن من ذلك انحلّت مسألة الطيران من حيث الصعود والنزول وتبقى مسألة البقاء في الهواء مدة طويلة ومسألة مقاومة العواصف والمسألتان بعيدتا الحل جدًّا او تكشف قوة اخرى غير معروفة

فلسفة التعب

يظن الناس عموماً ان قلّة الطعام وكثرة العمل هما اعظم الاسباب المؤدية الى التعب على حين انهم يشاهدون باعينهم كثيرين من الذين يتولاهم التعب حالاً وينهك قواهم وهم يأكلون ويشربون كثيراً ويعملون قليلاً سواء كان عملهم عقلياً او بدنياً . اذاً لا بدَّ للتعب من اسباب أُخرى

اذا أُطلق المجرى الكهربائي على ساق ضفدع ففعلت الكهربائية بها فعل الحركة الاختيارية تحركت الساق ذهاباً واياباً مدة ثم اخذت حركتها تقلُّ حتى تنقطع اخيراً . وقد يظنُّ ان قوة الساق نفدت بسبب قلة الغذاء ولكن اغسل عضلاتها بمذوّب خفيف من الملح العادي فتتجدد قواها وتعود الى الحركة كالاوّل . وهذا يدلُّ على ان سبب فقد الحركة ليس قلة الغذاء ويعلم بوسائل اخرى ان سببهُ تجمّع مادة سامّة شديد الحموضة في العضلات . وعليهِ فالتعب انما هو تجمّع بعض السموم في الجسم

واذا حقنت ساق الضفدع بخلاصة لحم البقر او بدم حيوان متعب ظهرت عليها آثار التعب كما لو كانت قد تحركت مراراً كثيراً فكلَّت من العمل الشاق . وعليهِ فلا يستبعد ان ينشأ التعب احياناً عن تناول مواد شديدة الحموضة جامدة كانت او سائلة

كتب احد الاطباء في هذا المعنى يقول ” أُصبت بالاعتقال لسبب اجهلهُ ثم شفيت منهُ ومضت ثماني سنوات لم يعاودني في خلالها سوى مرتين او ثلاث وكان ذلك عند اكلي شيئاً من خلاصة اللحم فاستدللت على ان خلاصة اللحم سمٌّ لي ولكنها قد لا تكون سمًّا لغيري . وهناك اسباب اخرى منها تناولي من الطعام اكثر مما يستطيع جسمي تمثيلهُ او افرازهُ بسهولة ولكن هذا السبب كان ثانويًّا في امري . وقد وجدت ان الافراط في الاكل اقلُّ ضرراً من اكل مواد لا يصلح اكلها ولو كانت كمياتها قليلة

ومنها خلو العمل الذي نعملهُ من اللذة . فقد كنت معلماً في احدى المدارس وكان معظم عملي جارياً على خطّة واحدة لا مجال فيهِ للابتكار فكان يتعبني خلوّهِ من لذة التنوّع والتفنن ويدهشني والحق يقال ما اراهُ من ان اعمال معظم الناس واحدة كلَّ يوم فما يعملهُ الواحد منهم اليوم يعملهُ غداً وهكذا الى آخر العمر فلا بدع اذا لم يجدوا فيها لذة بل وجدوها متعبة منهكة

وزد على ذلك كلهِ انني كنت أُسرف في قوتي البدنية عند مباشرتي لعملي المشار اليهِ بفرك يديَّ الواحدة بالاخرى وتقطيب جبيني وكثرة الاهتمام والحركة بلا بركة . وقد

وجدت الآن ان التفكُّر اسهل عليَّ وانا مستلقٍ لا اكاد احرك عضلاتي ولعلَّ السبب في ذلك ان هذه الحالة ادعى الى جمع القوى وعدم تشتيتها

ومن اسباب التعب ما هو ضدُّ السبب المتقدم فان التنوع في العمل قد يتعب اذا تكرَّر مثل عدمهِ ثم ان العادة والتكرار المنتظم قد يجعلان العمل الذي لا تنوُّع فيهِ غير متعب للذهن كحركة السابح وحركة الجندي السائر على نغمات الموسيقى

وللعادة تأثير عظيم في اعمال الناس واشغالهم وما يلحق بها من التعب فهي اما ان تجعل الانسان يتعب كثيرًا من عملهِ لاسيما اذا كان ميَّالاً الى التفنن والتغيير واما ان تجعل العمل الصعب في وقت سهلاً في وقت آخر . فقد كنت اتناول مع طعام الصباح كثيرًا من المواد الجامدة فاجد من نفسي نشاطًا ورغبة في الشغل بعد الطعام . ثم غيرت عادتي فاقتصرت على تناول بعض المواد السائلة فصرت اتعب حالاً من العمل البدني او العقليّ . ولو سئل احد في ذلك لقال طبعًا ان السبب قلة الطعام وليس الامر كذلك لانني لا اشعر الآن بتعب من العمل بعد الطعام السائل او ما اشعر بهِ من التعب اقلُّ مما كنت اشعر بهِ بعد تناولي الطعام الجامد صباحًا

ولقد كثرت اعمال الناس واشغالهم في هذه الايام فزادت على اثرها اتعابهم فيحسن بنا ان نبحث في اسباب التعب الحقيقية اذا كنا نروم النجاة منها ومن غوائلها . ولست اريد بالتعب التعب المرغوب فيهِ الذي يعقبهُ النوم الهنيُّ في اوانهِ بل التعب الذي يدركنا قبل الاوان ولم يكمل عملنا بعد ولا يكفي في بيان سبب هذا التعب ان نقول ان فلانًا عمل كثيرًا او اكل قليلاً فتعب بل يجب ان نبحث ايضًا في ما اذا كان عملهُ ملائمًا لهُ اوكان قد اتمهُ على الطريقة الملائمة وفي ما اذا كان الطعام الذي اكلهُ صالحًا وقد اكلهُ على الطريقة الواجبة

اما انا فقد وجدت بالاختبار اني اكون اقل تعبًا بعد شغل شاق لذيذ دام اثنتي عشرة ساعة مني بعد شغل ساعة لم يكن الشغل فيها لذيذًا وبعد طعام غير ملائم . واني اعرف رجلين ينشئان مجلة فيعكفان على كتابتها وتحريرها ولا يهتمان بطعام ولا رياضة لما يجدان في ذلك الشغل من اللذة العقلية ومع ذلك ترى آثار العافية والنشاط بادية عليهما . واعرف آخرين يجدون لذة في العمل ولا يتعبون منهُ مهما كان شاقًا على شرط ان يراعوا الاعتدال في طعامهم ورياضتهم

ومغزى ما تقدم اما ان يعنى الانسان بانتقاء عملهِ وشغلهِ او بانتقاء طعامهِ وطريقة معيشتهِ . فان الذين يستطيعون عمل كل شيء ويعيشون اية عيشة كانت من غير ان يشعروا

بتعب يذكر قلال جداً . ولا يمكن تعريف العمل الممل وسن قانون لهُ ولا سن قوانين وقواعد شاملة للطعام الملائم وغير الملائم . فما يعدهُ الواحد من الاعمال لهواً وتسلية يؤثر في الآخر تأثير السم الناقع . وما يلائم من الطعام مزاج زيد قد لا يلائم مزاج عمرو

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناهُ ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان . ولكنَّ العهدة في ما يدرج فيهِ على اصحابهِ فنحن براءٌ منهُ كلهِ . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ونراعي في الادراج وعدمهِ ما يأتي: (١) المناظر والنظير مشتقَّان من اصلٍ واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيرهِ عظيماً كان المعترف باغلاطهِ اعظم (٣) خير الكلام ما قلَّ ودلَّ . فالمقالات الوافية مع الايجاز تستختار على المطوَّلة

القمر لم ينفصل عن الارض

حضرات استاذيَّ الفاضلين منشئي المقتطف الاغر

وصلنا مقتطف هذا الشهر وفيهِ بين الاخبار ان الاستاذ بيكرنج الفلكي الاميركي قال ان القمر انفصل عن الارض حيث الاوقيانوس الباسيفيكي الخ . فرأيت ان الطبيعة لا تصادق على هذا القول وشككت في صدق الذي اخذتم عنهُ الخبر بنسبة ذلك الى استاذ فلكي وها انا متطفل باعتراضي رغبةً في اشهار الحقيقة وقد اكون مخطئاً فاتوقع اصلاح خطائي

من الاسباب التي تنفي كون القمر منفصلاً عن الارض بعد انجماعها وصيرورتها كتلة سائلة

١ . اختلاف القمر والارض في الثقل النوعي فان ثقل القمر النوعي ثلثا ثقل الارض النوعي فلو كان انفصل عنها كان اقتضى ان يكون ثقلهما النوعي واحداً لان كليهما من كتلة واحدة متماثلة

٢ . عوامل المد والجزر اثنان الشمس والقمر لكن القمر اشد فعلاً بسبب قربهِ فان كان العامل الاضعف وحدهُ وهو الشمس قدران يفصل جزءا من الارض فبالاحرى بعد انفصال القمر واتحاد فعلهِ بفعل الشمس كان يقتضي ان المد يمزق الارض شذر مذر

٣ . لو كان المد مع قوة التباعد عن المركز كافياً لفصل قمر عن الارض فلماذا لم ينفصل في ذات الوقت قمر ثانٍ من الجانب المقابل لمنفصل الاول ويكون حول الارض قمران متقابلان

لان المد يكون ابداً على جانبين متقابلين من الارض بدرجة واحدة من القوة

٤ . ان قلنا ان القمر انفصل عن الارض بقوة التباعد عن المركز مع قوة المد فبالضرورة يجب ان نحكم بان الانفصال حدث علي خط الاستواء حيث قوة التباعد على اشدها ولكن هذا ينفيهِ ميل فلك القمر علي دائرة خط الاستواء

٥ . لا ينفصل جزء من الارض الاَّ اذا زادت قوة التباعد عن المركز على قوة الثقل ولا يتوازن الثقل وقوة التباعد عن المركز عند خط الاستواء الاَّ اذا كانت سرعة دوران الارض على محورها ١٧ ضعف سرعتها الحالية وذلك يزيد عن ١٧ الف ميل في الساعة فلو انفصل القمر عنها وهي تدور بهذه السرعة كان يجب ان يدور الآن بهذه السرعة حولها لانهُ جزء من مادة محيطها الاستوائي ثم ان الارض تدور الآن بسرعة نحو الف وثلاثين ميلاً في الساعة عند خطها الاستوائي فاين ذهبت تلك السرعة

٦ . المد يدور على سطح الارض من الشرق الى الغرب والقمر بالعكس يدور من الغرب الى الشرق فلو كان انفصل من موقع المد فحالاً يصل الى موقع الجزر قبل ابتعادهِ عن الارض فينجزر ويعود اليها قهراً

٧ . لو كانت قوة التباعد عن المركز مع المد كافية لتجزئة الارض بعد انجماعها كانت بالاحرى منعت انجماعها وهي شتات

الدكتور

السلط ابرهيم الصليبي

[المقتطف] اننا لا نثبت خبراً مثل هذا الاَّ ونحن نعلم صحة نسبتهِ وهذه ليست اول مرة كتبنا فيها عن انفصال القمر عن الارض ولا الاستاذ بكرنج اول من قال ذلك ولكنهُ خالف الاستاذ جورج داروِن في المكان الذي ظن ان القمر انفصل منهُ . واكثر ما قيل عن القمر هنا مشروح في مقالة الاستاذ جورج داروِن ابن داروِن الشهير وقد نشرت خلاصتها في المجلد الرابع والعشرين من المقتطف وها كم ايضاح وجوه الصواب في ما اعترضتم عليهِ والخطإِ في ما حسبتموهُ منافياً لانفصال القمر عن الارض

الاول ان ثقل القمر النوعي نحو ثلاثة بالنسبة الى الماء او نحو ستة اعشار ثقل الارض النوعي ولكن ثقل ظاهر الارض اقل من نصف متوسط ثقل الارض كلها فثقل باطن الارض النوعي اكثر من ضعفي ثقل ظاهرها النوعي ويدل ذلك على ان باطن الارض اكثرهُ معادن ثقيلة او مواد مضغوطة جدًّا لشدة الضغط عليها وهذا يؤيد انفصال القمر عن الارض ولا ينقضهُ لان ثقل القمر النوعي مثل ثقل الجانب الاكبر من سطح الارض الى عمق الف ميل او الفي ميل

الثاني ان الذي فصل القمر عن الارض ليس قوة المد وحدها بل ساعدتها قوة التباعد عن المركز ولا يبعد ان هاتين القوتين بقيتا تفعلان الوفًا من السنين حتى تمكنتا من فصل القمر عن الارض . ويظهر بالحساب ان هذا الانفصال يمكن ان يتم حالما تصير الارض تتمم دورتها اليومية في اقل من ساعتين وعشرين دقيقة ولو بلحظة واحدة. ولم تعودا تتمكنان بعد ذلك من فصل قمر آخر ولو اضيفت اليها قوة القمر لان ميوعة الارض قلت بعد ذلك باشعاع الحرارة منها بمرور الزمن وقلَّ محيطها بتقلصها فضعف فعل التباعد عن المركز وربما قلت سرعتها ايضاً . والقمر يساعد الشمس مرةً ويقاومها مرةً كما لا يخفى فيتلف اليوم ما فعلهُ امس اي لو اجتمعت قوتهُ وقوة الشمس اليوم فرفعتا جانبًا من قارة اسيا ففي الغد يخالف فعلهُ فعلها فترفع هي جانبًا من قارة اسيا ويرفع هو جانبًا من قارة افريقية فيضعف كلٌّ منهما فعل الآخر

الثالث ان المد يحدث الآن في الجهة الاخرى من الارض كما يحدث في الجهة المقابلة للقمر لانهُ في الماء فان الارض الجامدة التي تحت الماء الأبعد تنجذب الى جهة القمر اكثر مما ينجذب الماء الذي عليها فكأنها تسبق الماء ساقطةً الى نحو القمر فيرتفع الماء في ذلك الجانب ايضاً (راجعوا كتاب الفلك للدكتور فان ديك صفحة ١٥٦) ولم يكن الحال كذلك حينما انفصل القمر عن الارض بل كانت الارض مائعة كلها

الرابع ان ميل فلك القمر على خط الاستواء قليل جدًّا نحو خمس درجات وهذا يمكن تعليلهُ بانحراف فلك الارض وبالفواعل الكثيرة التي تفعل بالارض من الخارج كجذب السيارات لها

الخامس ان السرعة اللازمة الآن لم تكن لازمة حينئذٍ بل كان يكفي ان تبلغ السرعة نحو عشرة اضعاف ما هي الآن وقد كان يوم القمر مثل يوم الارض وسيعود يومهُ مثل يوم الارض اخيرًا

السادس ان الجسم الذي يفصل عن الارض بقوة التباعد عن المركز وبقوة الجذب الخارجي لا يبقى مماسًّا للارض بل يبعد عنها اولاً في خط بين المماس والعمودي فلا يصل الى مكان الجزر

السابع ان قوتي الجذب والتباعد عن المركز تكفيان لذلك متى بلغت الارض حدًّا معلومًا من الميوعة والتقلُّص والسرعة في دورانها على محورها ولا يبعد ان تكون قد انفصلت منها اجزاء اخرى قبل القمر فابعدت عنها جدًّا وجذبتها اجرام اخرى او تمزقت وعادت الى مادة الكون او يكون القمر انفصل عن الارض اجزاء كثيرة انضمت معًا فصار منها القمر

ولا يخفى عليكم ان الذين قالوا بانفصال القمر عن الارض واخبروا عن ماضيهِ وانبأوا بمستقبلهِ مثل الاستاذ جورج دارون والاستاذ بكرنج من اكبر علماء الفلك الرياضي ويستحيل ان يقولوا قولاً الاَّ بعد ان ينفوا كل الاعتراضات التي تعترض دون صحتهِ . ونسبة معارفهم في علم الفلك الرياضي الى معارفنا كنسبة غنى روشيلد الى غنى رجل لا يملك مئة دينار. وليس في العلوم كلها ما يقتضي بحثًا ودقةً وحسابات عويصة مثل علم الفلك حتى ان نتيجةً تذكر في نصف سطر وتكتب بعشرة ارقام قد يشتغل في الوصول اليها عشرة حسَّاب مدة شهر من الزمان فليس من العدل ان يجلس الانسان في كرسيهِ ويعترض على ابحاث ونتائج اذاب العلماء ادمغتهم في الوصول اليها . ثم ان اكثر ما يقال عن القمر لم يثبت كلهُ بالبرهان الرياضي حتى الآن ولا ادَّعى العلماء انهُ مثبت ثبوتًا ينفي كل ريب ولكن لا يقوم اعتراض عليهم الاَّ ممن يعرف كل ما يعرفونهُ

طلب الدليل

سيدي العالمين منشئي المقتطف الفاضلين

قال حضرة رفيق بك العظم في مقدمة كتابهِ "اشهر مشاهير الاسلام" بعد ما قال ما قال عن هينبال ومع هذا فاين هو من موسى بن نصير ومولاهُ طارق اللذين جاءا من اقصى العربية الى المغرب فدوَّخا ممالك هينبال القديمة في افريقيا الشمالية الى اخر ما هنالك .... بل اين هو من عبد الرحمن بن عبد الله النافقي الذي اقتحم ما وراء البرين .... ثم تطرق الى نبوليون فقال اين نبوليون الذي طبقت شهرتهُ التاريخية الآفاق .... من قتيبة بن مسلم فاتح السند وتركستان . وعبد الملك بن مروان الذي تولَّى منصب الخلافة

وقد تتبعت هذا الكلام الى آخرهِ فلم اجد فيهِ حجة تقنعني على صدقهِ ولا ازال في ريب من هذا القبيل فالتمس منكما ان تقابلا بين هؤلاء الرجال وتظهرا من ادلة التاريخ التي بين ايدينا من هو اعظم حقيقة ولكما الفضل والشكر سلفًا

بيروت خليل يعقوب الخوري

[المقتطف] لا اصعب من المقابلة بين الناس والموازنة بينهم لاسيما وانهُ يلزم مَن يقابل بينهم ان يصف الاحوال التي نشأوا فيها وصفًا دقيقًا خاليًا من الغرض ويردها الى شكل واحد . وان كان حضرة المؤلف يجد الى اجابتكم سبيلاً فقد نشرنا سؤالكم ليطَّلع عليهِ والاَّ فلا شبهة في ان ما فعلهُ قوَّاد العرب من اعجب ما فعلهُ اعاظم القواد في كل زمان

باب الزراعة

موسم القطن هذا العام

اوضحنا في ما كتبناهُ عن نجاح القطر المصري ان نجاحهُ لا يستمرُّ اذا هبط ثمن القطن حتى عاد ثمن القنطار جنيهين او جنيهين ونصف جنيه لان ليس في القطر الآن مورد آخر لكسب المال من الخارج بدل ما يدفعهُ ثمن وارداتهِ وفائدة ديونهِ وديون حكومتهِ الأَ ثمن القطن فاذا نقص عن ثمن البضائع الواردة وفوائد الديون وقع القطر في الافلاس

وتدلُّ الدلائل الحاضرة على ان الموسم الواصل سينقذ القطر من الخسارة التي وقع فيها بسبب عجز الموسم الماضي وهبوط ثمنهِ . فان زمام الزراعة واسع ونمو القطن جيد حتى اذا سلم من الآفات الجوية فلا يبعد ان يبلغ ثمانية ملايين قنطار واذا اعترتهُ الآفات العادية بلغ سبعة ملايين او سبعة ونصفاً

ثم ان السعر آخذ في الارتفاع فقد بلغ سعر نوفمبر في الكنترنات عند كتابة هذه السطور نحو ١٥ ريالاً واذا بقي على هذا الحد ولم يزد عنهُ بيع القنطار بثلثمئة وستين غرشاً الى ٣٨٠ غرشاً

اما الموسم الاميركاني (وعليهِ يتوقف سعر القطن بنوع عام) فحالتهُ تدعو الى ارتفاع السعر من وجهين الاول ان مساحة الارض المزروعة هذا العام تبلغ نحو ٢٨ مليون فدان وقد كانت في العام الماضي ٣٠ مليون فدان فالنقص في مساحة الارض نحو ستة في المئة وهو وحدهُ كافٍ لجعل موسم هذا العام اقلَّ من موسم العام الماضي بنحو مليون بالة اذا جرى موسم هذا العام في نموّهِ وخصبهِ كما جرى موسم العام الماضي

والوجه الثاني ان حالة نمو الموسم هذا العام دون ما كانت عليهِ في العام الماضي فقد كانت حالة النمو في شهر مايو ٧٧,٢ في المئة وكانت في العام الماضي ٨٣ في المئة . وفي شهر يونيو ٧٧ في المئة فقط وكانت في العام الماضي ٨٨ في المئة اي ان حالة الموسم كانت تزيد تحسناً في العام الماضي وتزيد سوءا هذا العام وهي دون حالة الموسم سنة ١٩٠٣ فانها كانت حينئذٍ ٧٤,١ في المئة في اول يونيو و ٧٧,١ في المئة في اول يوليو وكانت مساحة الارض المزروعة حينئذٍ ٢٨٩٠٧٠٠٠ اي نحو ٢٩ مليون فدان وبلغ المحصول حينئذٍ ١٠٠١١٠٠٠ اي نحو

عشرة ملايين بالة . فاذا جرى موسم هذا العام كما جرى موسم سنة ١٩٠٣ فلا يبلغ عشرة ملايين بالة بل يكون اقل منها

وقد نشرنا الجدول التالي وفيهِ حالة الموسم الاميركي في كل سنة من السنين الماضية حتى سنة ١٨٨٧ كما وجدها مكتب الزراعة في بداءة كل شهر عن الشهر الذي قبلهُ ومقدار المحصول ومساحة الارض المزروعة ومنهُ تتبين الامور المذكورة آنفًا اجلى بيان

سنة	يونيو	يوليو	اغسطس	سبتمبر	اكتوبر	المحصول	المساحة
١٩٠٥	٧٧ ٢	٧٧ ٠					٢٨١١٣٤٢٨
١٩٠٤	٨٣ ٠	٨٨ ٠	٩١ ٦	٨٤ ١	٧٥ ٨		٣٠٠٥٣٧٠٠
١٩٠٣	٧٤ ١	٧٧ ١	٧٩ ٧	٨١ ٢	٦٥ ١	١٠٠١١٠٠٠	٢٨٩٠٧٠٠٠
١٩٠٢	٩٥ ١	٨٤ ٧	٨١ ٩	٦٤ ٠	٥٨ ٣	١٠٧٢٨٠٠٠	٢٧٨٧٨٠٠٠
١٩٠١	٨١ ٥	٨١ ١	٧٧ ٣	٧١ ٤	٦١ ٤	١٠٦٨١٠٠٠	٢٧٦٣٤٠٠٠
١٩٠٠	٨٢ ٥	٧٥ ٨	٧٦ ٠	٦٨ ٢	٦٧ ٠	١٠٣٨٣٠٠٠	٢٥٤٢١٠٠٠
١٨٩٩	٨٥ ٧	٨٧ ٨	٨٤ ٠	٦٨ ٥	٦٢ ٤	٩٤٣٦٠٠٠	٢٤٢٧٥٠٠٠
١٨٩٨	٨٩ ٠	٩١ ٢	٩١ ٢	٧٩ ٨	٧٥ ٤	١١٢٧٥٠٠٠	٢٤٩٦٧٠٠٠
١٨٩٧	٨٣ ٥	٨٦ ٠	٨٦ ٩	٧٨ ٣	٧٠ ٠	١١٢٠٠٠٠٠	٢٤٣٢٠٠٠٠
١٨٩٦	٩٧ ٢	٩٢ ٥	٨٠ ١	٦٤ ٢	٦٠ ٧	٨٧٥٨٠٠٠	٢٣٤٤٥٠٠٠
١٨٩٥	٨١ ٠	٨٢ ٣	٧٧ ٩	٧٠ ٨	٦٥ ١	٧١٥٧٠٠٠	٢٠١٩١٠٠٠
١٨٩٤	٨٨ ٣	٨٩ ٦	٩١ ٨	٨٥ ٩	٨٢ ٧	٩٩٠١٠٠٠	٢٣٦٨٨٠٠٠
١٨٩٣	٨٥ ٦	٨٢ ٧	٨٠ ٤	٧٣ ٤	٧٠ ٧	٧٥٥٠٠٠٠	١٦٦٥٦٠٠٠
١٨٩٢	٨٥ ٩	٨٦ ٩	٨٢ ٣	٧٦ ٨	٧٣ ٣	٦٧٠٠٠٠٠	١٦٥٧٢٠٠٠
١٨٩١	٨٥ ٧	٨٨ ٦	٨٨ ٩	٨٢ ٧	٧٤ ٧	٩٠٣٥٠٠٠	١٩٨٥٨٠٠٠
١٨٩٠	٨٨ ٨	٩١ ٤	٨٩ ٥	٨٥ ٥	٨٠ ٠	٨٦٥٣٠٠٠	٢٠٣٨٩٠٠٠
١٨٨٩	٨٦ ٤	٨٧ ٦	٨٩ ٣	٨٦ ٦	٨١ ٤	٧٣١١٠٠٠	٢٠١٧٥٠٠٠
١٨٨٨	٨٨ ٢	٨٦ ٧	٨٧ ٣	٨٣ ٨	٧٨ ٩	٦٩٣٥٠٠٠	١٨٩٣٧٠٠٠
١٨٨٧	٩٦ ٩	٩٧ ٠	٩٣ ٣	٨٢ ٨	٧٦ ٥	٧٠١٨٠٠٠	١٨٥٢٢٠٠٠

ومعلوم انهُ لا يمكن بت الحكم من الآن في ما يكون عليهِ الطقس في هذا الشهر والشهرين

التاليين ولو جرى مجرى العام الماضي (وقد كان الطقس في العام الماضي من اصلح ما يكون لزراعة القطن في اميركا) فلا يحتمل ان يزيد المحصول هذا العام على ١١ مليون بالة لان ضيق المساحة يقلل المحصول نحو مليون بالة والضرر الذي اصاب الزراعة في مايو ويونيو يقلله مليونًا آخر . واذا جرى الموسم هذا العام كما جرى سنة ١٩٠٠ فمن المحتمل ان يبلغ المحصول احد عشر مليونًا ونصف مليون بالة . وهب انهُ بلغ هذا المبلغ فالسعر الحالي غير غالٍ لان المقطوعية العمومية تزيد اربع مئة الف بالة كل سنة بزيادة السكان . ومعامل انكلترا عندها من الطلبات ما يشغلها هذه السنة كلها وبعض السنة التالية ومعامل اميركا عندها ما يشغلها هذه السنة واكثر السنة التالية . واكثر هذه الطلبيات للصين

القطن وندوة العسل

صورة مذكرة نشرتها نظارة الداخلية تصف بها الضرر الذي يصيب القطن من ندوة العسل والطرق التي يلزم اتخاذها لوقايتهِ وهي

أُصيب القطن بضرر عظيم فى السنين الماضية في شهري اغسطس وسبتمبر وخصوصاً في مديرية البحيرة بسبب ما يسمونهُ ندوة العسل

فقد شوهد في مساحات واسعة من الاراضي المزروعة قطنًا في مركز كفر الدوار وغيرهِ من المراكز التي كانت تنجو من الدودة وكانت تبشر بمحصول وافر ان الاوراق تصبح سوداء على حين فجأة وتضعف الشجيرات و يتلف جانب عظيم من المحصول ويسمَّى هذا الضرر بندوة العسل وتعليل ذلك هو ما يأتي :—

في مثل هذا الأوان يشاهد في بعض المحلات على النبات آلاف من البعوض الصغير الاخضر (Hémiptera) بعضهُ باجنحة وبعضهُ بدون اجنحة . وهذا البعوض المعروف باسم (Aphis) يتغذى من الاوراق بطريق المص وذلك ولو انهُ لا يكفي لقتل النبات ولكنهُ بالطبع يضعفهُ . وحين تغذّي البعوض كما ذكر يضع على الاوراق مادة لزجة من نوع الندى العسلي . ووقت الفيضان حينما يكون الجو رطبًا يجلب هذا الندى العسلي اليهِ جرثومة نوع من الفطر الاسود التى يحملها الريح فتستقر في الاماكن التي توجد فيها هذه المادة اللزجة . وتأثير ذلك يظهر سريعًا فان مسام الاوراق تختنق حالاً و يسودُّ النبات كما ذكر آنفًا. ولحد الآن يظهر انهُ ليس في الامكان مقاومة الفطر المذكور والامر الوحيد الذي يمكن اجراؤهُ هو مقاومة البعوض بحال ظهورهِ . وعليهِ يلزم في البلاد المعروفة فيها ندوة العسل ان يراقب ظهور البعوض (Aphis) لاول مرة مراقبة شديدة

وقد صار تجربة الطريقة الآتية لقتل هذا البعوض ونجحت نجاحًا عظيماً وهي يرش النبات بآلة رشاشة رفيعة جدًّا بمركب ممزوج من المواد الآتية :—

نصف رطل صابون وجالون واحد من الماء (الجالون يساوي اربعة ليترات ونصف لتر) وجالونان من الكروسين Kerosene (ويضاف الى ذلك وقت الاستعمال ماء بمقدار ٢٥ ضعفًا من مجموع كمية المزيج المذكور)

ويصير تقطيع نصف الرطل الصابون قطعًا وتغلى بجالون الماء حتى تذوب تمامًا فترفع عن النار ويضاف اليها الجالون من الكروسين ويحرك الممزوج تحريكًا قويًّا — ومتى برد هذا المركب يخزن في قزايز لاستعمالهِ وقت اللزوم

ويمزج هذا المركب بخمسة وعشرين ضعفًا من مقدارهِ من الماء الاعتيادي ثم يوضع في الرشاشة ويرش بهِ النبات الموجود فيهِ البعوض (Aphis) وحيث أن هذا البعوض يلجأ عادة الى السطح الاسفل من الاوراق فيلزم رشها من الاسفل بكل دقة وفي الانتهاء ترش من الاعلى

ومن المحتمل ان ينجو بعض هذا البعوض ولذلك يلزم التفتيش في الزراعة بعد الرش بيومين او ثلاثة واذا وجد اثر منهُ حيًّا فتعاد عملية الرش مرة ثانية

واهم شيء هو الوقوف على الجهات التي ظهرت فيها ندوة العسل سابقًا

وهذا البعوض يشاهد عادة على اطراف غيطان القطن بقرب المصارف ومجاري المياه فيجب التفتيش في هذه الاماكن لمعرفة ظهور هذه الآفة ومتى ظهرت يلزم حالاً الشروع في الرش ثم التفتيش في باقي انحاء الغيط . ومن المهم ان يكون الرش في الصباح او في المساء . والفائدة من قتل البعوض هي منع وجود الندى العسلي وحينئذٍ لا تجد جراثيم الفطر ما تتغذى بهِ فتموت

وقد طلب بالتلغراف من فرنسا خمسون طلمبة رشاشة مصنوعة بنوع خاص للرش رشًّا رفيعًا جدًّا من كل ناحية وحين ورودها تصرف للجهات حسب اللزوم

وبقطع النظر عن ذلك فالزراع الذين يخشون من ندوة العسل يحسنون صنعًا لو طلبوا بمعرفتهم رأسًا الآلات اللازمة بالتلغراف من فرنسا من محل

M.M. Vermorel à Villefranche (Rhône)

ويرسل لهُ الثمن بواقع ٣٥ فرنكًا ثمن الرشاشة في فرنسا واسمها Pulverisateur Eclair No. 1 وموجود الآن في دائرة درانت باشا التي أُصيبت بضرر عظيم في الماضي نحو عشرين من هذه

الآلة وجار تشغيل عدد من الانفار لابادة البعوض قبل ظهور الفطر المنتظر في اغسطس

اما الكروسين الذي يفضل على البترول فيمكن الحصول عليهِ من المحل الآتي باسكندرية

Messrs Worms & Co.
Shell Transport Line

وسعر الطن يساوي جنيهين اثنين في الاسكندرية ونفاية الصابون الاخضر المناسب لهذا المزيج يمكن الحصول عليها من شركة الملح والصودا في معملها بكفر الزيات

[المقتطف] واذا ظهر المن المسمَّى هنا بعوضاً على قليل من ورق القطن فيسهل قطف ذلك الورق وحرقهُ

تصدير الفاكهة والخضر

يقول المعتنون بزرع الشليك (الفروله او الستروبري) في ضواحي العاصمة ان محصول الفدان الواحد يبلغ مئة جنيه الى مئتي جنيه في السنة. والظاهر من اقوالهم واقوال غيرهم من زارعي الفاكهة والخضر على انواعها ان محصولها يفي باتعاب الفلاح وايجار الارض ويكون منهُ ربح وافر وقد قرب الوقت الذي يستغني فيهِ القطر عن كل انواع الفاكهة والخضر التي ترد اليهِ الآن من الخارج فيتوفَّر لهُ نحو مليون جنيه كل سنة من هذا السبيل لان الفاكهة والخضر الطرية والمقددة التي ترد اليهِ في السنة يبلغ ثمنها حسب تقدير الجمارك نحو سبع مئة الف جنيه والباعة يشترونها بمليون جنيه على الاقل ومن ذلك اثمار مقددة باكثر من مئتي الف جنيه واثمار وخضر محفوظة باكثر من ٣٣ الف جنيه وبرتقال وليمون وغير ذلك من الفاكهة الطرية باكثر من ١٢٠ الف جنيه وزبيب باربعة وخمسين الف جنيه وهلمَّ جرًّا وهذه كلها من الفواكه والاثمار التي يمكن ان تزرع في القطر المصري وتجود فيهِ

ثم انهُ لا يصعب على اهل الزراعة في هذا القطر ان يكثروا من زرع بعض الخضر والفاكهة ما يزيد عن حاجة البلاد ويصدر منهُ مقدار كبير الى الخارج فقد صدر منهُ في العام الماضي من البصل ما ثمنهُ ٢٦٥ الف جنيه ومن الطماطم ما ثمنهُ ١٩ الف جنيه وليس ما يمنع زيادة الصادر من هذين الصنفين زيادة بالغة ولا ما يمنع وضع الفاكهة والاثمار في علب وتصديرها الى الخارج فان الفاكهة الموضوعة في علب ترد الينا من كاليفورنيا في غربي اميركا على غلاء اجور العمال هناك واجرة النقل برًّا وبحرًا فيجب ان تكون الفاكهة الصادرة من القطر

المصري ارخص منها جدًّا · وقد رأينا انواعًا من الفاكهة المحفوظة في علب صنعت في ابعدية الكونت زغيب على مقربة من مصر وهي تضاهي ما يماثلها من فاكهة اوربا واميركا في اتقان علبها · واذا تيسر للقطر المصري ان يستغني عما يرد اليهِ من الفاكهة والخضر ويصدر ما يماثلها توفر لهُ مليونا جنيه في السنة

تطعيم الاشجار

ابنا في الجزء الماضي في باب التحوُّل الفجائي انهُ يطرأُ على النباتات احيانًا تغير فجائي يغير نوعها · ولا يخفى ان هذا التغير يكون احيانًا مقصورًا على اصلاح النوع نفسهِ ومن ذلك تولدت الاصناف البستانية من الاصناف البرية . وتسهل الاستفادة من الصنف الجديد باخذ التقاوي منهُ كما حدث لما أُخذت تقاوي القطن العفيفي مثلاً والينوفتش من صنفين تولدا جديدًا او بقطع جزءٍ صغير من الصنف الجديد وتطعيمهِ في الصنف القديم كما في تطعيم الورد بورد آخر وتطعيم المشمش بمشمش آخر وتطعيم التوت بتوت آخر وتطعيم الليمون بليمون آخر وهلمَّ جرًّا

وانواع التطعيم مختلفة اشهرها الخمسة التالية

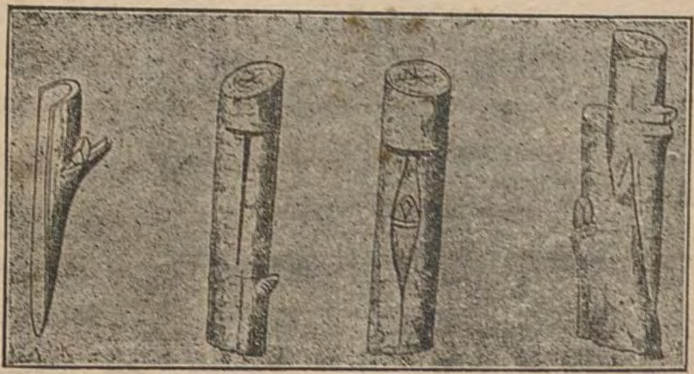

الشكل الاول

الاول ان يقطع غصن طري من الشجرة التي يراد اخذ الطعم منها و ينزع منهُ جانب فيهِ ورقة وتحتها برعم كما ترى فوق الرقم ١ في الشكل الاول. واذا قطع معهُ شيءٌ من الخشب وجب نزعهُ منهُ بالتأني حتى لا يبقى فيهِ الاَّ القشر السليم واسفل الورقة والبرعم الذي تحتهُ . ثم يبرى طرف قضيب من قضبان الشجرة التي يراد تطعيمها و يشق قشرهُ شقًّا كحرف التاء الافرنجية كما

ترى فوق الرقم ٢ في الشكل الاول ويجب ان يصل الشق الى الخشب ولا يجرحهُ ثم ترفع طرفي القشر برأس السكين وتدخل الجزء الذي نزعتهُ اولاً في هذا الشق وتسوي طرفيهِ عليهِ كما ترى فوق الرقم ٣ وتربطهُ ربطاً محكماً بقشر شجر او بخرقة ولكن لا تشد الرباط كثيراً فينمو البرعم ويغتذي مما تحتهُ ويتولد منهُ غصن مثل الشجرة التي أُخذ منها . وعلى هذا الاسلوب يطعم التوت البري بتوت جوي فتقطع قضبان التوتة البرية كلها ويطعم منها ثلاثة او اربعة واذا ظهرت فيها فروخ اخرى غير فروخ المطاعيم نزعت منها حال ظهورها فتصير قضبانها كلها من نوع الشجرة التي طعمت بها

الثانية ان يقطع غصن صغير من الشجرة التي يراد التطعيم بها ويكون فيهِ برعم او اكثر كما تقدم ويبرى حتى تكون فيهِ زاوية داخلية كما ترى في الجزء الاعلى الذي فوق الرقم ٤ في الشكل الاول ثم تبري غصناً من الشجرة التي تريد تطعيمها حتى يستقر المطعوم عليهِ ويلتحم بهِ كما ترى فوق الرقم ٤ ويطلى الغصن والطعم بالطين او نحوهِ لكي لا يجف المطعوم سريعاً بتبخّر الرطوبة منهُ . ويفضل ان يكون في الطعم برعمان او ثلاثة لا برعم واحد ويجب ان يتصل قشر الطعم بقشر المطعم كما ترى فوق الرقم ٤

ستأتي البقية

زراعة القطن في جزائر الهند الغربية

اهتمَّ الانكليز بزرع القطن في جزائر الهند الغربية فابتدأُوا في سنتا لوشيا سنة ١٩٠٠ وبلغت مساحة الارض المزروعة في تلك الجزائر ٥٠٠ فدان سنة ١٩٠٢ و ٤٠٠٠ فدان سنة ١٩٠٣ و ١١٦٨١ فدانًا سنة ١٩٠٤ ومن ذلك ٧٢٤٣ فدانًا مزروعة بالقطن المعروف بالسي ايلند وينتظر ان يبلغ محصول السي ايلند هذا العام ١٨٠٠٠ قنطار اي يكون متوسط محصول الفدان قنطارين ونصف قنطار وان يبلغ ثمنها مئة الف جنيه . واذا استمرت الزيادة على هذه النسبة فلا يبعد ان تبلغ مساحة الارض المزروعة عشرات الالوف من الفدادين ولكن ان كان متوسط محصول الفدان لا يزيد على قنطارين ونصف فلا نظن انهُ يكون هناك ما يرغّب اهل الزراعة في زيادة الاهتمام بزرع القطن ولاسيما اذا هبط ثمنهُ . ثم ان الذين يزرعون القطن في الولايات المتحدة لا يجهلون ان ثمنهُ يهبط كثيرًا اذا زاد المحصول عن المقطوعية زيادة كبيرة . فاذا اتفق انهُ زاد في سنة من السنين كما حدث في العام الماضي ضيقوا نطاق زراعتهِ في العام التالي لكي يبقى سعرهُ مرتفعًا

بابُ تدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيهِ كل ما يهم اهل البيت معرفتهُ من تربية الاولاد وتدبير الطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

تعليم الاطفال

ما يجب ان يعلّموهُ وما يجب ان لا يعلّموهُ

اول ما يلاحظ في الاطفال كثرة السؤَالات التي يسأَلونها حالما يتعلمون الكلام ورغبتهم في ان يلمسوا بايديهم ما يرون باعينهم ويغيروا شكل كلّ ما يقع في ايديهم اذا استطاعوا ذلك ويقلدوا كل ما يرون اما بالرسم على الورق او بجبل الطين وعمل التماثيل على صور واشكال شتى

والطفل يكثر من السؤَال اعتقادًا منهُ ان ابويهِ وكلّ كبير غيرهما يحيطون علماً بكلّ شيء وقد جرت عادة اكثر الوالدين ان ينتهروا اطفالهم عند الاكثار من المسائل ظنًّا منهم انهُ من قبيل الفضول في الكلام وهذا وهم اذ لكل معلول علّةٌ وعلّةُ اكثار الاطفال من السؤَال تنبه قواهم العقلية ونموّها فاذا لم يجبهم والدوهم اجوبة ترضيهم لم يسكتوا بل تحوّلوا الى غيرهم واذا لم يرتضوا باجوبة هؤُلاء عادوا وقد تولاَّهم الخذلان وخيبة الامل

ومن اعظم اغلاط الوالدين اشتغالهم بشؤُون الحياة اليومية عن النظر في مصالح اطفالهم فيهملوا امر المستقبل التهاء بالحاضر ويتركوا تربية اولادهم للصدفة او يسلموهم الى المربيات والخادمات وهنّ لا يعلمن مطالب الطفولة وواجباتها فيقلنَ في انفسهنّ ان كان الوالدون لا يهتمون باطفالهم افنكون نحن اكثر اهتمامًا منهم بهم فيشرعنَ في العناية بمنظرهم الخارجي سترًا لحاجاتهم الحقيقية

ومن عادة الاطفال عند ولادة اخ او اخت لهم ان يسأَلوا والديهم من اين اتى هذا المولود فيحار بعض الوالدين في الجواب عن هذا السؤَال لاسيما وهم لا يريدون ان يضلّوا صغارهم ويجيب آخرون عليهِ بقولهم ان الله بعثهُ وآخرون انهم اشتروهُ او ان القابلة جاءت بهِ. والغالب ان الاولاد يسكتون على امثال هذه الاجوبة ولكنها اجوبة لا تفيدهم شيئًا ولا تبيّن لهم

حقيقة . والذين يجيبون بها و باشباهها يعتمدون على قول من قال ان الجهل فضيلة وان اساس العفاف والطهارة قلة المعرفة وحجتهم في ذلك ان نواميس ولادة الاولاد قد حُطت عن مقامها السامي الى الدرك الاسفل فلا يحسن بالصغار ان يطَّلعوا على حقيقتها

والحقُّ ان لا ظلام الاَّ ظلام الجهل ومعظم الذين ساروا في ذلك الظلام عثروا وسقطوا سقوطاً لم ينهضوا منهُ وقليل منهم وصلوا الى سنّ البلوغ وقواهم سليمة من الضرّ والاذى . فهل يجب على الوالدين ان يخبروا اولادهم بسرّ وجودهم وهم صغار و يربوهم على المبادىء والتصورات السامية في خلال ذلك . هذا سؤال تصعب علينا الاجابة عنهُ لاننا لا نعلم ماذا تكون نتيجة ذلك . قالت كاتبة انكليزية مشهورة ما يأتي :—

" اذا سأل الولد الصغير امَّهُ حائراً من صنعني ومن اين اتيت فالغالب ان تجيبهُ على ذلك جواباً اولى بها ان لا تنطق بهِ وان يكن صحيحاً وهو ان الله صنعك اذ هذا الجواب من حيث الصحة هو مثل قولها لأبنها اذا افرط في الاكل وأُصيب بسوء الهضم ان الله ابتلاك بهِ . أليس خيراً لها ولهُ ان تقول انك اتيت من ابيك وامك يا ولدي فقد صنعت من جسمينا فانت جزءٌ منا . وقد نموَت فينا كما تنمو البزرة في الثمرة وحملتك شهوراً طوالاً تحت قلبي حيث صوّرتَ ولبثت الى ان ولدتك بالتعب والالم . ألا يتعلَّق قلب الولد بها متى اطلع على نسبتهِ اليها بهذا القول اكثر مما يتعلق بها بالقول الاخر الذي لا يروي لهُ غليلاً فيتطلب الحقيقة حتى اذا وجدها حفظها سراً لا يبوح بهِ خشية ان تعدّ معرفتهُ لهُ جرماً عليهِ "

هنا ما قالتهُ تلك السيدة ولكن ليس في تاريخ العمران ما يدلُّ على ان افشاء سر الحمل والولادة للاولاد اسلم عاقبة من اخفائهِ عنهما الى ان يبلغا اشدهما . ويظهر لنا ان الاخفاء اسلم عاقبةً وان صرف الاذهان عن هذا الموضوع افاد الامم التي تصرف الاذهان عنهُ كما ان تنبيه الاذهان اليهِ منذ الصغر اضرَّ غيرهم من الامم . اما الاطفال فليس من الضروري اخبارهم بكل شيءٍ ولا هم يصرون على معرفة كل شيءٍ . واي شيءٍ نعلمهُ حق العلم حتى نخبرهم بحقيقتهِ فاذا قلنا لهم ان اخاكم الصغير هدية من الله لا نكون ابعد عن الصواب من قولنا لهم انهُ من والديكم ولا هو اسهل عليهم ادراكاً من قولنا لهم ان سوء الهضم من كثرة الطعام

وكما يجب على الوالدين ان يطلعوا اولادهم على ما تفيدهم معرفتهُ يجب عليهم ان يخفوا عنهم ما تضرهم معرفتهُ

تأديب الاولاد

تأديب الاولاد ومقاصتهم بالضرب من بقايا عصور الجهل الماضية . قال الاستاذ فولر اتبع مذهب سليمان الحكيم في ضرب الاولاد ان شئت واما انا فاتبع مذهب سيد سليمان القائل اغلب الشرَّ بالخير . فان استعمال القوة الحيوانية التي يمتلكها الرجل لمقاصة الاولاد ذوي الابدان اللينة الغضة حطة لهم ومفسدة

ولا يمكن تعيين قصاص واحد لكلّ من أذنب من الاولاد لاختلاف امزجتهم فما يوافق نزِق الطبع لا يوافق ليّن العريكة وما يلائم عصبيَّ المزاج لا يلائم الدموي او اللمفاوي . فليترك الامر لفطنة الوالدين في ذلك

ومما يحسن الالتفات اليهِ في هذا الباب ترغيب الاولاد في قراءة الكتب والروايات التي تهذب النفس وترفعها عن الدنايا . قالت مس جلدر وهي من النساء الانكليزيات اللواتي اشتهرن بالكتابة في الجرائد والمجلات انها قرأت تاريخ حياة بنيامين فرنكلين الكاتب والفيلسوف الاميركي الشهير فوطدت النفس وهي صغيرة على الاشتغال بالتحرير فنشأت كاتبة نحريرة

قراءة الروايات

الناس صنفان من حيث التربية والتهذيب . صنف يرى انهُ يجب الاقتصار في تربية الاحداث والحدثات على ما يقوّم الاخلاق والطباع ويدرّب العقول على الحسن وينبه الاميال الى الخير وان تسهل امامهم السبل المؤدية الى ترقية الآداب واعلاء شأنها ويسدّ كلُّ سبيل الى الجهة الاخرى اي ان يعرف الاولاد كلَّ ما في هذه الدنيا من الخير وهم صغار فينشأوا عليهِ وان يجهلوا ما فيها من الشرِّ على الاطلاق حتى اذا كبروا وشبوا كانوا ملائكة في زي بشر

والصنف الآخر يرى ان التربية الصحيحة لا تقوم بفتح ابواب الخير وسدِّ ابواب الشر امام الصغار بل بفتحها كلها على السواء امامهم واظهار ما في دخول الاولى من النتائج الجليلة وما في دخول الثانية من العواقب الوخيمة بالشواهد والامثال فينشأوا ميالين الى الخير راغبين عن الشر . والذين يرون هذا الرأي يقولون ان المرء مفطور على الخير والشر منذ تصورهِ وان كل ما يبذل من المساعي في تبيين الخير وتكبيرهِ وتزيينهِ في العيون وستر الشر وتصغيرهِ وتقبيحهِ حتى يقتصر الصغار على الاول منهما دون الآخر انما يذهب ادراج الرياح ما دامت بذرة الميل الى الشر مغروسة فيهم منذ خلقتهم . وان الغرض من التربية ليس اقتلاع تلك البذرة

ولا محو آثار الشر من الطبع بل تعويد الصغار اتباع الحسن وتغليب الخير على الشر في نفوسهم وتقوية ضمائرهم وتنبيهها حتى لا يرتكبوا القبيح واذا ارتكبوهُ وتنبهت ضمائرهم بكتتهم على سوء افعالهم فنكصوا عن ارتكابها ثانية تائبين نادمين

هذا ما يقال في التربية عموماً ولما كانت قراءة الروايات على اختلاف مواضيعها مما يقبل الصغار عليهِ لما فيها من اللذة والتفكهة وكانت جزءا من التربية فقد انقسم الناس فيها الى قسمين قسم يقبح قراءتها وينهى عنها وخصوصاً قراءة الروايات الغرامية لما فيها من اضاعة الوقت على غير طائل ومن الاضرار بالاخلاق والآداب وقسم لا يمنع قراءتها بل يرغب فيها لانها تدل على الخير والشر معاً فتحضُ على الاول وتحذر من الثاني

وقد تناول كثيرون من كتاب الغربيين هذا الموضوع وبحثوا فيهِ البحث الدقيق والانكليز منهم لا يذمون قراءة الروايات من الوجهة الادبية قدر ما يذمونها من الوجهة المادية اي انهم لا يذمونها من حيث اضرارها بالآداب قدر ما يذمونها من حيث اضرارها بالجسم لأن الامة الانكليزيَّة امة عرفت بميلها الى الالعاب الرياضية مثل لعب الكرة وسباق الخيل والقوارب وما شاكل . وفي ادخال الالعاب الرياضية الى مدارس الحكومة عندنا والاهتمام بها اهتماماً عظيماً دليل على شغف الانكليز بها حتى في غير بلادهم واعتمادهم عليها في التربية والتهذيب. قال احد كتاب الانكليز ان الوفاً من الانكليز رجالاً ونساء شباناً وشاباتٍ يقضون ساعات الفراغ في قراءة الروايات فيسمُّون ابدانهم بدلاً من أن ينعشوها ويقووها بالرياضة في الخلاء. وبالامس لقيت غلاماً قويَّ البنية يقرأُ رواية مشهورة وهو لا يلوي على شيء بدلاً من ان يلعب مع رفاقهِ ابناء سنهِ ويتعلَّم كيف يصير رجلاً

وقال آخر تحت عنوان "الرجال العظام لا يكتبون روايات" ان خفة الحركة والنشاط في العمل اول الاسباب الى عظمة الامة وكتابة الروايات وقراءتها تستلزمان الجلوس والقعود عن الحركة فتفضيان الى سوء الهضم وقصر البصر

وقال كاتب من كتاب الروايات ان للعب الكرة فضلاً عليَّ لا انكرهُ ما دمت حيًّا فان كتابة الروايات اورثتني ضعفاً عصبيًّا لم اشفَ منهُ الاَّ بمداومة لعب الكرة. ومن رأْي غيرهِ ان الاقبال على قراءة الروايات الى درجة تشبه الجنون افضى الى اضعاف البنية العمومية

على ان بينهم قوماً يرون غير ذلك. منهم كاتب استحسن ميل الناس الى قراءة الروايات دون كتب الفلسفة وما فيها من الآراء الوهمية والخيالية وقال ان الروايات تمثل لنا حقيقة الحياة. والسبب في ميل الناس الى قراءتها هو ان معيشة الصانع والعامل والتاجر تضيق الصدر

وتجبس النفس . ومشاغل التمدن الحديث وهمومهُ الكثيرة تميل بالناس الى طلب الخلاص من تلك الحال اما بالرياضة البدنية كاللعب او بالرياضة العقلية كقراءة الروايات . وقال غيرهُ ان قراءة الروايات تعلّم الانسان ما لا بدَّ ان يعلمهُ من امور هذه الحياة خيرًا كان او شرًّا وان السعي في ابطالها عبث لانهُ مخالف لسير الطبيعة وان التربية الصحيحة لا تقوم بالاقتصار على معرفة الخير بل بمعرفة الخير والشر على السواء وتدريب الاميال على الحسن والحض عليهِ والتحذير من ضدهِ وترك الانسان حرًّا مختارًا مسؤولاً فكم من قبيح انتج حسنًا وكم من خير اعقب شرًّا

والذي نراهُ بالاختبار ان الاعتدال في قراءة الروايات وفي ايضاحها اسباب الشر هو خير الامور فالذي يقرأُ قليلاً ويقتصر على الروايات الفاضلة المفيدة يستفيد منها ولا يضيع وقتهُ ولا ينهك صحتهُ . والروايات التي يعتدل كاتبوها فيها فلا يقتصرون على وصف المناقب الفاضلة ولا يكثرون من وصف المعايب يفيدون برواياتهم اكثر من غيرهم وهي الروايات التي يجب ان تفضَّل على غيرها . وعلى كل حال لا يحسن بوالد ولا بوالدة ان يسمحا لابنهما او لابنتهما بقراءة رواية لم يقرأها احدهما او احد معارفهما ويجدها خالية مما يضرُّ ويشين

باب التقريظ والانتقاد

مرور في ارض الهناء ونبأ من عالم البقاء

اسم كتيّب الّفهُ حضرة الاديب شكري افندي الخوري احد السوريين المقيمين في سان باولو بالبرازيل . وهو على صورة رواية انتقد المؤلف فيها الفساد الذي يعتور الهيئة الاجتماعية الحاضرة ولا سيما في البلاد الشرقية وجعل كلامهُ رسالة من صديق ميت الى صديق حي ووصف بلسان المكاتب مشهدين عظيمين عالمًا ارقى من هذا العالم ودينونة على مدخل عالم البقاء . وقد كان في جملة الذين دينوا احد ملوك الشرق وراهب ومتصرف من متصرفي لبنان وصحافي وطبيب ومحامٍ وكان قصاص الصحافي ” ٣٠ جلدة بقضبان الرصاص حتى غاب عن الصواب من الاوجاع لان الضرب كان بالاكثر على اصابع يدهِ اليمنى التي كان يقبض بها

القلم” ومن ذنوبهِ التدليس والتبخير والتظاهر بالغيرة على الدين وعلى الوطنية

وهذه الرواية على طراز الرواية التي الَّفها دانتي الايطالي وسمّاها “ديڤين كومدي” وقسمها اقساماً منها “انفرنو” اي الجحيم وصف فيهِ سفرهُ اليهِ ومن لقيهُ فيهِ من الرجال وما صادفهُ من الاهوال . او هي على مثال رواية “دون كيشوت” التي الفها سرفنتس الاسباني واراد بها انتقاد نظام الفروسية الذي كان سائداً في زمانهِ

وتمتاز هذه الرواية على اكثر الروايات العربيَّة الموضوعة باتساع صور الخيال فيها وتعدُّد اشكالها وامتزاجها بعضها ببعض امتزاجاً سهل المأخذ . وكثير من عباراتها باللغة العامية السورية التي تقرّ بها من افهام الجمهور فنثني على اجتهاد المؤَلف ونؤَمل ان انتقادهُ يصيب المحجة ولا يضيع سدًى . وحبذا لو ترجمت هذه الرواية الى اللغة التركية لكي تعم فائدتها الذين عناهم بالذات

رواية ٣٠ سبتمبر او غوائل المدنية

رواية ادبية اجتماعية عرّبها حضرة الاديبين ابرهيم افندي صادق وعثمان افندي صدقي وطبعاها على نفقتهما وثمنها ٣ غروش صاغ وحبذا لو ذكرا الاصل الذي عُرِّبت عنهُ

الخلاصة الحكمية في المملكة النباتية

رسالة في الحبوب والخضر والاثمار والاشجار وخواصها وفوائدها بقلم متياس افندي ابرهيم سعد وهي كبيرة الفوائد على صغر حجمها . ومن الفوائد المذكورة فيها ان قطران الخشب يطرد السوس من اهراء الحنطة اذا دهنت بهِ بعض الالواح الخشبية ووضعت في الاهراء بين الحنطة

الدر النظيم في فن التنويم

في هذه الرسالة كلام موجز على فنّ التنويم واشهر طرقهِ المستعملة في اوربا واميركا من قلم حضرة الاديب لطيف افندي يعقوب شكيب وقد طبعت بادارة المكتبة الشرقية لحضرة صاحبها الاديب ابرهيم افندي فارس والكلام فيها قريب المأخذ على ما فيهِ من التدقيق ولكننا لا نودُّ ان يشيع هذا الفن لان ضررهُ اكثر من نفعهِ

باب المسائل

فتحنا هذا الباب منذ اوّل انشاء المقتطف ووعدنا ان نجيب فيهِ مسائل المشتركين التي لا تخرج عن دائرة بحث المقتطف. ويشترط على السائل (١) ان يمضي مسائلهُ باسمهِ والقابهِ ومحل اقامتهِ امضاء واضحاً (٢) اذا لم يرد السائل التصريح باسمهِ عند ادراج سؤالهِ فليذكر ذلك لنا ويعين حروفاً تدرج مكان اسمهِ (٣) اذا لم ندرج السؤال بعد شهرين من ارسالهِ الينا فليكررهُ سائلهُ فان لم ندرجهُ بعد شهر آخر نكون قد اهملناهُ لسبب كافٍ

(١) اللغة والغناء

مصر. عطا افندي فهمي. هل للغة تأثير في اصوات الغناء

ج يقال ان لها شيئاً من التأثير وان الغناء شائع في ايطاليا لان لغتها تسهّل الغناء على اهلها

(٢) عدم تشابه التوأمين

ومنهُ. تلد المرأة احياناً ولدين توأمين ولا يكونان متشابهين تشابهاً تامًّا فما سبب ذلك

ج ان البيضة التي يتولد الجنين منها تكون كاملة في الام وهي مستديرة مثل بيوض اكثر الحيوانات وشاملة لدقائق كثيرة ماخوذة من كل عضو من اعضاء الام ثم يصل اليها اللقاح من الاب وهو جسم صغير جدًّا طويل دقيق شكلهُ مثل شكل الافعى ولكن رأسهُ كبير بالنسبة الى جسمهِ وفيهِ دقائق صغيرة من كل عضو من اعضاء الاب فيخرق البيضة ويدخلها وللحال يخرج جانب مما كان فيها لانها كانت ملأى فلا تسع ما فيها مع اللقاح الذي يأتيها. والظاهر ان هذا الجسم يدخل كلهُ او بعضهُ حسب قوتهِ وضعفهِ او حسب درجة نموهِ وان ما في البيضة يخرج كثير منهُ او قليل حسب ما يدخلها من اللقاح. وهذه الحالات كثيرة مختلفة لا ضابط لها وانما يجمعها قولنا ان البيضة الملقحة يكون فيها دقائق كثيرة من اعضاء الاب ودقائق كثيرة من اعضاء الام ولكن ذلك ليس على درجة واحدة فقد يكون فيها من مميزات الام اكثر مما فيها من مميزات الاب وقد يكون فيها من مميزات الاب اكثر مما فيها من مميزات الام

ثم ان في جسم الاب دقائق متصلة اليهِ من ابويهِ واسلافهما وفي جسم الام دقائق متصلة اليها من ابويها واسلافهما على درجات مختلفة فلا يبعد ان يدخل احدى البيضتين كثير من الجسم الآتي من الاب ويدخل الاخرى قليل من آخر آتٍ منهُ فيكون جنين البيضة الاولى اشبه بابيهِ او اسلافهِ من جنين البيضة الثانية فيختلفان

(٣) قوة السلاح

ميت بشار. قرياقص ميخائيل لماذا يرسل

السلاح الجيد مقذوفاتهِ الى ابعد مما يرسلها السلاح الرديء مع ان المقذوفات واحدة

ج اذا كانت انابيب البنادق او المدافع مختلفة في طولها وثخن تجويفها وشكلهِ والمقذوفات واحدة فلا بدَّ من اختلاف الابعاد التي تصل اليها باختلاف انابيب البنادق والمدافع وهذا هو الواقع . ثم ان انابيب المدافع والبنادق الجديدة امتن حديدًا من الانابيب القديمة فتحتمل مقذوفات اقوى بارودًا فتنقذف الى مسافات اطول

(٤) الشيب والعمر

ومنهُ . هل الشيب دليل على قصر العمر او على ضعف الصحة

ج لا هو دليل على قصر العمر ولا على ضعف الصحة ولكنهُ فعل طبيعي يبتدئ غالبًا في سن الكهولة ويزيد رويدًا رويدًا الى الشيخوخة كما ان الاسنان لا تنبت غالبًا الَّا بعد وصول الطفل الى الشهر السابع او الثامن ولا تتكامل الَّا حينما يبلغ السنة الثالثة

(٥) اللحم المحرم

ومنهُ . لماذا يأكل الناس بعض الطيور ويحرّمون اكل البعض الآخر ولماذا يأكلون في فرنسا لحم الخيل ولا يأكلونهُ هنا ولماذا لا تحث الجرائد الناس على اكل لحم الخيل في هذا القطر بعد ما غلا فيهِ لحم الضان

ج ان لحم الطيور التي تأكل الحبوب والاثمار اطيب من لحم الطيور التي تفترس الحشرات او تفترس غيرها من الطيور والغالب ان الناس يأكلون الاولى ويمتنعون عن اكل الثانية وفي ذلك شيء من الفائدة العمومية عدا ما فيهِ من مراعاة الذوق وذلك ان الطيور التي تأكل الحبوب والاثمار تضرُّ باهل الزراعة فيكون من صيدها واكلها فائدة لهم والطيور التي تأكل الحشرات تفيد اهل الزراعة فيكون في صيدها واكلها ضرر لهم . اما لحم الخيل فلم يكن يؤكل لغلائها ولذلك لم يألف الناس اكلهُ وحسبوا انهُ غير جائز او غير مفيد لكن اهالي فرنسا كسروا قيود التقليد شأنهم في كل شيءٍ واكلوا لحم الخيل والخيل رخيصة عندهم فيسهل على الفقراء ابتياع لحمها اما هنا فالخيل غالية الثمن اذا كانت فتية صالحة للركب او للعمل واذا شاخت ولم تبقَ تصلح للعمل لا يكون لحمها طيب الطعم . وبلاد مثل بلاد المشرق يعسر فيها نسخ العادات القديمة لاسيما وان اكثر اهاليها يحرمون لحم الخيل فاليهود يحرمونهُ لان الفرَس لا يجتر ولا يشق الظلف والنصارى يجارون اليهود في اكثر ما حُرّم في التوراة وائمة المسلمين مختلفون في تحليل لحمها وبعضهم يحرمهُ او يكرهُ اكلهُ ولذلك كلهِ قلَّ اكل لحم الخيل في البلاد الشرقية حتى لم يبقَ مألوفًا مع ان العرب كانوا يأكلونهُ . اما الجرائد فلا فائدة من حثها الَّا على ما تتبين فائدتهُ ويكون مما يسهل العمل بهِ

باب الاخبار العلمية

اوجه القمر في شهر اغسطس

	يوم	ساعة	دقيقة	
الهلال	١	٦	٣	صباحاً
الربع الاول	٨	٠	١٦	"
البدر	١٥	٥	٣١	"
الربع الاخير	٢٣	٨	١٠	"
الهلال	٣٠	٣	١٣	مساء

وفي اليوم الثلاثين من اغسطس يكسف القمرُ الشمس كسوفًا يرى تامًّا في اعالي الصعيد ويظهر في القاهرة ايضًا ويبلغ اكثر من تسعة اعشار قرص الشمس اما اوقاتهُ فقد ذكرناها في الجزء الخامس من اجزاء هذه السنة

السيارات

عطارد نجم المساء في اول الشهر ولا يرى في اخرهِ

الزهرة نجمة الصبح الشهر كلهُ

المريخ يغرب نصف الليل في اول الشهر وقبل الساعة ١١ في آخرهِ

المشتري يشرق قبل نصف الليل قليلاً في اول الشهر

زحل يطلع في اول الشهر الساعة ٨ مساء

متحف الاستانة

كتب الاستاذ سايس العالم بالآثار المصرية والاشورية والحثية يقول انهُ زار متحف الاستانة العلية في الربيع الماضي فوجدهُ من اجمل متاحف الدنيا في اتساعهِ وبنائهِ ومحتوياتهِ وترتيبها العلمي والفضل في انشائهِ وتنظيمهِ لمديرهِ حمدي بك. وقد اثنى عليهِ ثناء جميلاً يفتخر كل شرقي بسماعهِ من ذلك العلاَّمة . ثم قال انهُ رأى الآثار الحثيَّة التي في ذلك المتحف وامعن نظرهُ فيها ونقل كثيرًا من نقوشها وكتاباتها ورأى ايضًا آنية الخزف السوري المستخرجة من آثار قادش عاصمة الحثيين وبينها كاس قبرصية . وحث طلبة العلوم الاثرية في اثينا على زيارة هذا المتحف ودرس ما فيهِ من الآثار. ونحن نضيف شكرنا على شكرهِ لحضرة حمدي بك لانهُ اوجد في عاصمة السلطنة ما تفتخر بهِ وحفظ آثار اسلافنا من الضياع والتلف

مجمع ترقية العلوم البريطاني

يلتئم مجمع ترقية العلوم البريطاني في جنوبي افريقية في شهر اغسطس المقبل وقد عزم ٣٨٥ من اعضائهِ على الذهاب الى جنوبي

افريقية لحضورهِ فتتلى خطبة الرئاسة في ١٥ اغسطس في مدينة الراس وتتلى خطبة عن جيولوجية شلالات فكتوريا في مدينة يوهنسبرج في ٣٠ اغسطس وتتلى بقية الخطب بينهما ويزور أكثر الاعضاء شلالات فكتوريا (وهي الموصوفة في اول هذا الجزء) ومن الخطب التي تتلى فيهِ خطبة عن مرض النوم وخطبة عن الملاريا وخطبة عن الماس وخطبة عن الطيران وخطب كثيرة تتعلق بافريقية من حيث جيولوجيتها وجغرافيتها وحيواناتها ونباتاتها واخلاق اهلها وما اشبه

مراصد اليابان في كوريا

لم تكد جنود اليابان تحتل كوريا حتى شرعت حكومة اليابان في انشاء المراصد المتيورولوجية فيها لرصد الظواهر الجوية ومنها مرصد في شمولبو مبني على ارفع اكمة هناك فجاء مرتفعاً عن سطح البحر سبعين متراً وشرعوا في الرصد فيهِ من اول يناير الماضي. وقد دعي اليهِ كثيرون من سكان سيول وشمولبو في شهر مارس الماضي وشاهدوا ما فيهِ من آلات رصد الجو والزلازل وهي مما صنعهُ او اصلحهُ الاستاذ اوموري الياباني وكان بين الزائرين سفراء اليابان وفرنسا وبريطانيا العظمى وكثيرون من وجهاء كوريا

احتفال المدرسة الكلية السنوي

احتفلت المدرسة الكلية السورية احتفالها السنوي السادس والثلاثين يوم الاربعاء في ٢٨ يونيو الماضي وقد قدمت الاحتفال عما هو معتاد بسبب حضور اللجنة الطبية من الاستانة قبل الاوان لامتحان المنتهين في القسمين الطبي والصيدلي. واعضاء هذه اللجنة الفريق محمود حقي باشا والاميرالاي احمد فهمي بك والبكباشي اسكريت روشن بك

وقد منحت الدبلوما الطبية لستة وعشرين طبيباً وهذا أكبر صف خرج من المدرسة الطبية ولتسعة من الصيادلة ومنحت البكلوريا لصف المنتهين من القسم العلمي وعددهُ ستة ثم حلّف سعادة حقي باشا رئيس مجلس الامتحان تلامذة الطب والصيدلة اليمين المعتادة وختمت الحفلة بترنيم اغنية الكلية وكانت الموسيقى تصدح في خلال وقائع الاحتفال

تعب العين

كتب الدكتور دكسن احد مشاهير الاطباء الاميركيين مقالة في تعب العين خطأ فيها قول من يقول ان الانسان الذي تكلّ عيناهُ من شدة التحديق في الاشياء التي امامهُ تصطلح بترك الشغل والعمل وقال انهُ ما من عضو من اعضاء الجسم يقصر عن اتمام وظيفتهِ الَّا اذا كان مختلاً معتلاً وعليهِ فان تعب العين لا يزول باراحتها بل بمعرفة العلة ومداواتها . قال ومن الثابت ان اجهاد العين هو السبب الاعظم غالباً في انحطاط

الجسم انحطاطاً عصبياً وفي الهستيريا والسوداء والقيء والقلق والدسبسيا العصبية وخفقان القلب والاغماء والصداع والقبض وغيرها

ومن رأيهِ ان دقة البصر وجلاءهُ ليسا دليلاً على صحة العين كما يظن الناس عموماً ويفاخرون بذلك لان كثيرين من ذوي البصر الدقيق البعيد لا يستطيعون اجهاد عيونهم طويلاً . بل ان قياس صحة العين سهولة البصر وعدم الشعور بالتعب بعد استعمالها

ذبابة التستس

ذكرنا غير مرة ان هذه الذبابة تلسع الناس فتسبب المرض المعروف بداء النوم وقد كُشف الميكروب الذي يخرج منها حينئذٍ ويسبب هذا الداء وانها تلسع المواشي فتميتها . وقد كتب الاستاذ كوخ الآن من شرقي افريقية انهُ اكتشف فيها الميكروب او الجسم الحلمي الذي يميت المواشي حينما تلسعها

اكرام العلماء

منحت مدرسة كولمبا الجامعة باميركا الاستاذ بكرل الكيماوي الفرنسوي المشهور نشان برنارد لاجل اكتشافاتهِ المهمة في الاورانيوم التي كانت اساساً للبحث عن اشعة الراديوم ونحوها . وقد منحت مثل هذا النشان قبلاً للورد ريلي والسر وليم رمسي والاستاذ رنتجن

حجر بعلبك

كتب احد الاميركيين الذين زاروا سورية في موسم السيَّاح الماضي وشاهدوا قلعة بعلبك رسالة الى السينتفك اميركان قال فيها حبذا لو كان السلطان يعطينا الحجر الكبير الملقى امام قلعة بعلبك تذكاراً لهمة قوم يستطيعون حفر ترعة بناما . فلو فعل لنقلنا الحجر الى البحر ولم نهدم بيتاً ولم نقطع شجرة ثم جئنا بهِ الى اميركا محمولاً على ظهر الامواج . وقد قدَّر ثقل الحجر بالف وخمس مئة طن

هبة ركفلر الجديدة

ركفلر من اغنياء اميركا الذين اغنوا العلم والعلماء بهباتهم . وقد انبأتنا الجرائد العلمية الآن انهُ وهب مليوني جنيه لديوان التعليم العمومي الذي انشأتهُ حكومة الولايات المتحدة لاجل الاهتمام بنشر التعليم فيها . واشترط انفاق الريع الناتج من هذه الهبة على نشر التعليم العالي في الولايات المتحدة . ووهب ايضاً مدرسة يال الجامعة مئتي الف جنيه

اكبر المواني

اكبر مواني العالم من حيث مقدار البضاعة التي تدخلها كل سنة ميناء لندن وهنغ كنغ ونيويورك . ويليها انتورب في البلجيك فان ثقل ما دخلها من البضاعة سنة ١٩٠٣ بلغ تسعة ملايين طن

فهرس الجزء الثامن من المجلد الثلاثين

٥٩٣ الشيخ محمد عبده (مصوَّرة)
٥٩٧ توليد الحي من الجماد (مصوَّرة)
٥٦٨ شلالات فكتوريا (مصوَّرة)
٦٠١ ايضاحات لُغويَّة · لسعيد افندي الخوري الشرتوني
٦٠٦ التهذيب
٦١٧ الاغلاط الاستقرائية · لعبد الرحمن افندي شهبندر
٦٢٤ الانباء بالقطس
٦٣٢ شذرات في الانشاء
٦٣٧ تاريخ محمد علي باشا
٦٤٦ آلة الطيران
٦٤٨ فلسفة التعب

٦٥٠ باب المراسلة والمناظرة * القمر لم ينفصل عن الارض · طلب الدليل
٦٥٤ باب الزراعة * موسم القطن هذا العام · القطن وندوة العسل · تصدير الفاكهة والخضر تطعيم الاشجار (مصوَّرة) · زراعة القطن في جزائر الهند الغربية
٦٦١ باب تدبير المنزل * تعليم الاطفال · تأديب الاولاد · قراءة الروايات
٦٦٥ باب التقريظ والانتقاد * مرور في ارض الهناء ونبأ من عالم البقاء · رواية ٢٠ سبتمبر او غوائل المدنية · الدر النظيم في فن التنويم
٦٦٧ باب المسائل * اللغة والغناء · عدم تشابه التوأمين · قوة السلاح · الشيب والعمر · اللحم المحرم
٦٦٩ باب الاخبار العلمية * وفيه ١٢ نبذة
رواية فتاة مصر ملحقة بالمقتطف

الفصل الخامس والعشرون

دار الحرب

الناس والواحد منهم تشبعهُ كسرة من الخبز او حفنة من الارز مع قليل من الزيت والدهن وشيءٌ من اثمار الارض وبقولها ويسترعريهُ قليل من القطن والصوف. وهو اذا عمل الارض واستثمرها ورعى المواشي واحتلبها وصاد السمك والطير نال منها ما يقوم بمعيشتهِ ومعيشة زوجتهِ واولادهِ وزاد معهُ ما يكفي نفقةً للباحثين عن نواميس الكون وقوى العقل واسباب الامراض والآفات وللذين يبهجون العين ويطربون الاذن ويبسطون النفس وينعشون العواطف والاميال — نشأت منهم فئة لا تقنع بما قُسِم لها مماَّ يكفيها ويغنيها بل تراها دائماً في طمع وجشع لا تروى ولا تشبع

كالحوت لا يرويهِ شيءٌ يلهمهُ　　يصبح ظمآناً وفي البحر فمهُ

وهي ترى الحياة الدنيا دار غربة والمرء فيها على سفر والقليل يشبعهُ كالكثير. والصحة والمرض والراحة والتعب والسرور والكدر لا تتوقف على كثرة المال وقلتهِ. ومع ذلك لا همَّ لها الاَّ تسخير الناس وايقاع بعضهم في بعض لاخذ ما في ايديهم ولو استلحم بعضهم بعضاً ونُهكت قواهم من التعب ويبست السنتهم من الظمإ وتقطَّعت اوصالهم من الجراح ونزفت الدماء من عروقهم وذاقوا الموت اشكالاً والواناً

وهذه الفئة قديمة في الدنيا لم يخلُ منها عصر من عصور التاريخ قام منها الملك والكاهن والقائد والوزير وتكاد تنحصر الآن في ارباب الاموال والذين على شاكلتهم من كل منتفع بضرر غيرهِ ولو ملكاً عظيم الشأن. فقد صُمَّت آذانهم عن عويل اليتيم والارملة ووقرت عن نوح الثاكل وانين الجريح فلا تسمع الاَّ رنة الدينار وصوت المنادي بارتفاع الاسعار. فبينا ترى الزوجة تقتّر على نفسها واولادها لكي ترسل الى زوجها في ساحة القتال شيئاً ينعش فؤادهُ من مأكل او مشرب. والطبيب يمشي تحت الرصاص ليجد جريحاً يضمد جراحهُ. والممرضة تسهر الليل ولا همَّ لها الاَّ تخفيف آلام الجرحى وتغميض عيون القتلى. والامَّة كلها شاخصة العيون فاغرة الافواه مفتوحة الآذان تنتظر خبراً من دار الحرب يذهب ببعض كربتها. ترى ارباب الاموال والذين ينتفعون من الحروب بعمل آلاتها والتزام الميرة والاسلحة لها لا يهمهم سوى ملء جيوبهم من النضار الذي يبعث بهِ الارواح بيع السماح

نشبت هذه الحرب بين الروس واليابان والسبب الظاهر الذي يذكرهُ الخصمان ويفاخران

بهِ ان الواحدة تطلب منفذًا لتجارتها في اقاصي المشرق ولو لم يكن لها هناك تجارة تذكر والثانية تخشى ان تناظرها الاولى وتضيق خناقها وتمنع شعبها عن المهاجرة الى بلاد قريبة منها ولا بدَّ لها من الارتزاق فيها . والسبب الباطن بل سبب الاسباب ان خزائن الماليين في اوربا فاضت بالنضار وفي بلاد الروس مئة وثلاثون مليونًا من النفوس وفي اليابان وكوريا ومنشوريا نحو سبعين مليونًا وكلهم ديونهم العمومية قليلة و يستطيعون ان يعطوا من عرق جبينهم اكثر ممَّا يعطون الآن فعلى مَ لا يستدينون الاموال من اولئك الاغنياء بالربا الفاحش وتتقيد دولهم بدفع رباها السنين الطوال والاموال التي يستدينونها تحرق بارودًا وتغرّق بوارج ولو ذهبت معها المهج وذابت بها النفوس

نسير بالقارئ الآن الى اربع عواصم وهي لندن وبطرس برج وطوكيو والقاهرة ونسمع ما يقال فيها مما يتعلق بموضوع روايتنا

لندن

جلس كبار الماليين الثلاثة في الغرفة الفاخرة الاثاث والرياش التي تدفئها انابيب الهواء السخن في اوقات البرد وتبردها المراوح الكهربائية في اوقات الحر وتتصل بها اسلاك التلغراف والتلفون ممدودة الى اكثر العواصم الاوربية والاميركية . ووضع احدهم وهو لورد بنشيلد رجلاً فوق اخرى وادار كرسيهُ قليلاً وانحنى الى الوراء وهو ينظر الى السقف وينفخ الدخان من فيهِ ثم قال فازت اليابان برًّا وبحرًا فان الضربة الاولى اضعفت الاسطول الروسي الذي في الشرق الاقصى وهو اكثر من نصف الاساطيل الروسية كلها فصار اضعف من الاسطول الياباني واذا تساوى الفريقان في العلم والمهارة والحماسة (وهذا بعيد على ما علمتهُ من الواقفين على حقائق الامور لان اليابانيين يفوقون الروسيين في كل ذلك) اذا تساوى الفريقان فالاسطول الياباني صار اقوى من الاسطول الروسي فان التقى الخصمان في عرض البحر كما لا بدَّ من ان يلتقيا يومًا ما فالفوز الاسطول الياباني . وجاء غرق البارجة بتروباولسك التي غرقت في ١٣ الماضي (ابريل) وغرق فيها الاميرال ميكاروف قائد الاسطول كلهِ ومحي الحماسة في صدور رجالهِ ضربة قاضية على الروس لانها اضعفتهم ماديًّا وادبيًّا . والظاهر انهم ليسوا في البر انجح منهم في البحر لان الجنرال كروكي هزم جناح الجيش الروسي الايسر على ضفاف نهر يالو

فالتفت اليهِ المالي الثاني وقال هل يظن اصحابنا ان الحرب تنتهي قريبًا

لورد بنشيلد — كلاَّ ولا ينتظر الآن انها تنتهي في سنة من الزمان وحرب مثل هذه يجب ان تدوم سنةً او سنتين نعم انهُ يستهلك في السنة الواحدة الآن قدر ما كان يستهلك

في عشر سنوات ولكن المنتفعين من الحروب صاروا كثارًا فلا يصل النفع الى كلٍّ منهم الّا اذا كثر مقدارهُ جدًّا ألا ترى ان هؤلاء الاميركيين يتعاملون بالملايين كما نتعامل نحن بالالوف فلا بدَّ من ان تكبر اللقمة لكي تشبع الجميع

الثالث — كم تبلغ نفقات كل من الخصمين قبل انتهاء القتال على ما تظن

لورد بنشيلد — يظهر لي قياسًا على حرب الترنسفال وحرب فرنسا وبروسيا ان نفقات كلٍّ من المتحاربين ستبلغ مئة مليون جنيه ان لم تزد عليها ثم لا بدَّ للدولة الغالبة من ان تأخذ غرامة من الدولة المغلوبة فاذا فرضنا انها مئة مليون جنيه ان لم تكن مئتين فلا تنتهي الحرب وتضع اوزارها ما لم ينفق فيها وعليها ثلثمئة مليون من الجنيهات نصفها من بلاد المتحاربين ونصفها دين على الفريقين ولا ندينهم اياهُ باقل من خمسة او ستة في المئة ونربح بصعود الاسعار وهبوطها ما دامت الحرب سجالًا ثم نبقي من سنداتها في ايدينا قدر ما نشاء . وسيربح كل اصحاب المعامل والبواخر والتجار والملتزمين لان الاموال التي تنفق توزَّع عليهم . وخيرات الارض كثيرة في بلاد الروس وكوريا ومنشوريا واليابان فيستخرجها اهل الزراعة والصناعة ولا يعطون اصحاب الديون الَّا جانبًا صغيرًا من ربحهم فان المئة والخمسين مليونًا من الجنيهات لا يزيد رباها على عشرة ملايين في السنة مهما كان فاحشًا وهي اذا وزعناها على مئتي مليون سكان روسيا ومنشوريا وكوريا واليابان لم يلحق النفس منهم سوى شلن واحد

الثالث — ليس هذا بالشيء الذي يذكر وما منهم الَّا وهو يحرق تبغًا او افيونًا باضعاف اضعاف ذلك

الثاني — اذًا نحن متفقون على ان نمدَّ اليابان بما تحتاج اليهِ من المال

الاول — نعم ولكن لا يحسن بنا ان نفعل ذلك مع الروس الآن لانهُ لا بدَّ لنا من اضعاف روسيا بايَّة واسطة كانت حتى لا تقوى على اليابان وحتى تضطر اخيرًا الى عقد الصلح ودفع الغرامة فنقرضها الغرامة عن طيب نفس بعد ان نأخذ عليها الضمانات الكافية

الثالث — هل منعُنا المال عنها الآن يكفي لاضعافها وجعلها تطلب الصلح

الاول — لا اظن لان جيراننا الفرنسويين قد يغترون بمواعيدها ويمدونها بالمال او تلجأُ هي الى المطل والتقهقر البطيء وترك اليابانيين في قفار سيبيريا القاحلة فلا بدَّ لنا من واسطة فعَّالة الواسطة القديمة المعروفة التي الجأْنا بها فرنسا الى طلب الصلح من المانيا وهي الثورة الداخلية وهذه امرها جارٍ على ما يرام فان أُجراءنا منتشرون في كل مكان ليحرّضوا عليها ولم ننفق عليهم حتى الآن الَّا جزءًا مما ربحناهُ وهب اننا انفقنا عليهم كل ما ربحناهُ فالربح الواصل يكفينا .

نعم لا بدَّ من الثورة الداخلية بحجة طلب الدستور او بأَية حجة كانت حتى تضطر الحكومة الى عقد الصلح بالشروط التي تشترط عليها

الثاني — اذًا لا بدَّ من الانتظار الى ما بعد استفحال الثورة

الاول — نعم والى ما بعد سقوط بورت ارثر واندحار الجيوش في منشوريا والتغلب على الاسطول الروسي كلهِ وقد يقتضي ذلك كلهُ سنة اخرى من الآن ولكن ما هي السنة وما هي السنوات في حياة الامم

وجلس السر ادورد برون وزوجتهُ في مكتبهِ وقرأا كتابين واردين عليهما من ولديهما من دار الحرب فان التلغرافات كانت ترد منهما تباعًا ولا سيما من هنري ولكن لا يذكر فيها الا اخبار موجزة واما هذان الكتابان ففيهما تفاصيل لا تحتملها الرسائل البرقية

كان هنري قد انضمَّ الى الجنرال كروكي ككاتب حربي وسارت دورا مع جمعية الصليب الاحمر لتمريض الجرحى فكتبا يصفان ما لقياهُ في كوريا

قال هنري وصفتُ لكم في كتابي السابق ما لقيتهُ في اليابان من الحفاوة والاكرام واني سأتشرف بمقابلة الامبراطور وقد حدث ذلك يوم سفري ولما ذكر السفير اسمي واسمك يا ابي واسم لندن نيوز كرَّر الامبراطور اسمي ورحَّب بي وسأَلني كيف وجدتُ بلاد اليابان ورجا لي طيب الاقامة فيها وقال انهُ مديون لنا وللأُمة الانكليزية عمومًا . وظهر لي من حديثهِ انهُ عارف بمشترى الطرَّادين . ولم تطل مدة المقابلة الَّا خمس دقائق لكثرة الاشغال والمهام ولما ودعت جلالتهُ قال لي انهُ لا ينسى اسمي واسم ابي فقال لهُ السفير انني سائر الى دار القتال فوقف حينئذٍ مفكرًا وهو ينظر اليَّ تارةً والى السفير اخرى كأَنهُ استغرب ذلك ثم قال سنوصي ناظر الحربية اذًا لكي يعتني بك اعتناءً خاصًّا وعسى ان لا نسمع منك وعنك الَّا كل ما يسرُّ ونحن واثقون بالنصر لاننا اصحاب الحق الذي لا نزاع فيهِ والحق يقوّي اصحابهُ ويشدّد عزائمهم والبغي مرتعهُ وخيم ولكن ليس من السهل ان يقيم الانسان على بساط الراحة مثلي واولادهُ كلهم في ساحة القتال . ثم شدَّ يدي وخرجت وانا شاعر كأَني فارقت ابًا شفوقًا . والحقُّ ان رعيتهُ كلها تنظر اليهِ كما تنظر الى ابيها بل الى معبودها . والكلام الاخير الذي كلمني بهِ عن قيام الانسان على بساط الراحة واولادهُ في ساحة القتال كررهُ او كرَّر مثلهُ باللغة اليابانية واظن انهُ ترنَّم بشعر نظمهُ حديثًا لانهُ من الشعراء المعدودين بل هو ابلغ شاعر في بلاد اليابان والناس يحفظون اشعارهُ ويترنمون بها واكثرها يدلُّ على حبهِ لرعيتهِ وكرهِ

لكل ما يسوءها وسهره عليها سهر الوالد على اولاده

وتشرفت دورا بمقابلة الامبراطورة ولا بدَّ من ان تصف لكم ما لقيتهُ منها ثم سافرنا كلانا في سفينة حربية الى كوريا ودخلنا سيول العاصمة وشاهدنا قصر الامبراطور وقد جمع من ضروب الزخارف والسخائف ما يكلُّ القلم عن وصفهِ ولا ادري لماذا يحب هؤُلاء المشارقة تقليد الغربيين في ما لا يحسنون اتقانهُ ولا تقليدهُ وعندهم من فنون الصناعة الخاصة بهم ما يحقُّ لكل امة ان تفاخر بهِ حتى اليابانيين تجد في غرفهم آنية وامتعة فرنسوية او انكليزية مما نحسبهُ تحت الوسط والى جانبها امتعة يابانية نفتخر لو رأَينا شيئًا منها في اكبر متاحفنا. ولم اتشرف بمقابلة امبراطور كوريا ولكنني رأَيتهُ عن بعدٍ

وسرت مع الجيش الى ان بلغنا الحدود الفاصلة بين كوريا ومنشوريا وقد اخبرتكم تلغرافيًّا عن المناوشات القليلة التي وقعت في اثناء الطريق ولا اقدر ان اصف لكم مقدار اعتناء القواد والضباط بالجنود وسهرهم على راحتهم . وانا اجتمع مرارًا بمندوبنا الحربي وهو يقول لي ان نظام الجيش تام وبسالتهُ تفوق الوصف ويظهر ان ادارة المخابرات عندهم بلغت غاية ما وراءها غاية فانها رسمت للجيش خرائط يرون فيها كل طريق وشِعْب ونهر وجدول وينبوع ومرتفَع ومنخفض فضلاً عن المدن والقرى والمزارع . وادارة اللوازمات والتسهيلات لم تترك شيئًا مما يحتاج الجيش اليهِ . ولا ضابط الَّا وفي يدهِ نظَّارة يرى بها عن بعد وعلى ذراعهِ ساعة وحكُّ ليعرف الوقت والجهات ومع كل جندي تذاكر يكتب في التذكرة منها كلمتين ويضعها في صندوق البريد فيرسلها الى اهلهِ . وطعامهم ساذج ولكنهُ كافٍ ومغذٍّ. والغريب من امرهم وامر ضباطهم انهم لا يسكرون ابدًا وقلما يشربون شيئًا من المسكر واظن انهُ لو لم نكن بينهم ما كانوا يذوقون مسكرًا ولكنهم يحسبون الشرب من مجاملتنا فيشربون معنا قليلاً من الوسكي او من الشمبانيا

وكتاب هنري طويل واكثرهُ على هذا النسق . اما كتاب دورا فمختصر لانها اصيبت بزكام شديد وهي في بلاد كوريا وكتبت كتابًا مسهبًا عن بلاد اليابان قبل مغادرتها لها . وقد رأَت من ويلات الحرب في مَن مرَّضتهم من جرحى الروس واليابانيين ما جعلها تحنق على الذين ساعدوا في اثارة هذه الحرب او لهم اقل مشاركة فيها ولم تكن تبرّر اباها من ذلك ولو لم تكن تودُّ البقاء بالقرب من اخيها لتركت التمريض والمرضى وعادت الى بلادها . وقد غاظها من الجرحى اليابانيين انهم كانوا يظهرون الاشمئزاز كلما دنت منهم او دنا منهم غيرها من الممرضات الاوربيات ولاسيَّما لمَّا علمت انهم يفعلون ذلك انفةً لانهم يدَّعون ان للاوربيين

رائحة كريهة . اما الجرحى الروسيون فكانوا على غاية الوداعة ورأَت في نفسها ميلاً اليهم اكثر من ميلها الى اليابانيين وسمعت ضابطًا منهم يتكلَّم الانكليزية فاخبرها انهم مسوقون الى هذه الحرب على غير رضاهم وان اكثر اخوانهِ يجهلون مقدرة اليابانيين واما هو فلا يجهلها ولكنهُ صغير لا يسمع احد قولهُ . وختمت كتابها بتطمين والديها عنها وعن اخيها وبحثّ ابيها على بذل الجهد في ما يقرّب عقد الصلح حجبًا للدماء ودفعًا لهذه الويلات

لما اتمّت لادي برَوْن قراءة الكتابين التفتت الى زوجها وقالت لهُ ما ظنك يا ادورد هل تطول هذه الحرب وهل يُسفك فيها كثير من الدماء

فقال هذا هو المرجَّح عند الذين يوثق بعلمهم . ويُقال ان السنة تنقضي ولا تنقضي الحرب لان روسيا لاتسلِّم اذا انكسرت ولا تسلِّم اذا انتصرت

فقالت وهل تستطيع اليابان ان تستمر على تعبئة الجنود ومداومة القتال . فقال نعم تستطيع ذلك على ما يظهر واصدقاؤُها يساعدونها بالمال ان لم يستطيعوا ان يساعدوها بالرجال

فقالت بئْس العمل وبئْس المساعدة نساعد الناس حتى يقتل بعضهم بعضًا

فقال لقد قلت لكِ مرارًا يا ادث ان سلامة امبراطوريتنا تتوقف على اضعافنا الروس لان انظارهم طامحة الى الهند وقد اهتمَّ القائد العام بتقوية الجيش الهندي وتسهيل طرق النقل والمواصلات ولكنهُ مهما قوَّاهُ ومهما سهَّل لهُ طرق الانضمام يبقى دون الجيش الذي يسهل على روسيا ان تضرب الهند بهِ . واذا استطاعت روسيا ان توقد نار الثورة في تلك البلاد فجيشنا لا يكفي لاخمادها فكيف نلتقي بهِ ثلثمئة الف او اربع مئة الف من الجنود الذين تستطيع ان ترسلهم الى الهند . فحياتنا وموتنا كامَّة عظيمة يتوقفان على هذه الحرب

فقالت الظاهر انك تنسى ان ثبوت اقدامنا في بلاد الهند يتوقف على حسن ادارتنا لها فاذا احسنَّا ادارتها وعاملنا الهنود كاخوان لنا كأَننا واياهم رعية ملك واحد فلا يثورون علينا كما لا يثور بعضنا على بعض ويستحيل ان يتوخوا ابدال حكمنا بحكم الروس كما يستحيل ان يفكر اهالي ادنبرج مثلاً بابدال حكم الانكليز بحكم غيرهم . واما اذا كنا نمتهنهم ولا نعاملهم بالانصاف ولا نساويهم بنا فانهم يثورون علينا ولو ضربنا حولهم نطاقًا من الحديد . وسيكونون اقرب الى الثورة بعد فوز اليابان منهم الآن لاننا طالما حاولنا اقناعهم بمعاملتنا لهم ان الشرقي دون الغربي ولا يمكنهُ ان يحكم نفسهُ بنفسهِ ويفلح فاذا فازت اليابان على دولة الروس العظيمة امَّحى كل ما حاولنا ترسيخهُ في اذهانهم عن ضعفهم وترفُّعنا عليهم ورسخ فيها اننا نحن علة تأَخرهم عن مجاراة اليابانيين وتمكنت العداوة لنا في نفوسهم . وسنرى انهم هم واهالي الصين يشرعون

من الآن في اقتباس طرق اليابانيين لكي يقووا مثلهم وقد نفلح في منعنا السلاح عنهم من البحر ولكن لا بدَّ من ان يصل اليهم عن طريق روسيا باية واسطة كانت فلا سلامة لنا في الهند الَّا اذا ساوينا الهنود بانفسنا وحينئذٍ تصير بلاد الهند مثل كندا واستراليا ولا تبقى كما هي الآن

فضحك زوجها وقال انسيتِ ما قال بسمارك

فقالت كلاَّ لم انسَ ما قالهُ عدو النساء ولا ادري كيف سكتم عنهُ وزمامكم كان في يد امرأة . وانا وانت على طرفي نقيض في هذا الموضوع وقد لا استطيع اقناعك كما لا تستطيع اقناعي ولكن ارجو ان توافقني على ارجاع ولدينا فاني ارى من كتاب دورا انها غير مسرورة ولعل صحتها ليست على ما يرام ولم نربِّ ابننا ليكون ضابطًا ولا قائد جيش وليس من الحكمة ان نغرّر بحياتهِ لمصلحة مالية فان كان ذهابهُ لغاية سياسية فقد قضاها ومكاتبة الجريدة امر يستطيعهُ كل احد ولذلك ارى من الحكمة بل من الواجب ان نرسل اليهما تلغرافًا ليحضرا حالاً

فقال سكِّني روعكِ فانني اظن انهما يستاءان جدًّا اذا طلبنا منهما الرجوع الآن

فقالت نطلب منها الرجوع ولا نلح بل نترك لهما التصرُّف المطلق كأن نقول لهما اننا نفضل رجوعكما سريعًا

فقال ان تلغرافًا مثل هذا يقلقهما ويقلق غيرهما لان ادارة المخابرات اليابانية لابدَّ ما تطلع عليهِ

وبعد بحث طويل ارسلا اليهما تلغرافًا يقولان فيهِ اننا نود رجوعكما في اول فرصة ممكنة

في بطرس برج

سرجيوس — هل قرأتم التلغراف الذي ورد قبل الظهر

فلادمير — التلغراف الذي نشرتهُ نظارة الحربية . من يصدّق تلغرافاتها

سرجيوس — هذا التلغراف لم تنشرهُ حتى الآن ولكن لا بدَّ لها من نشرهِ اليوم لان القيصر لابدَّ وان يأمر بجناز عن نفوس الغرقى

اولغا — اي غرقى

سرجيوس — الاميرال الاميرال ميكاروف وكل مَن في بارجتهِ بتروباولسك. غرقت البارجة بلغم مستهُ وهي راجعة الى بورت ارثر من مطاردة اليابانيين . مست لغماً من الغامنا فانفجر واغرقها بمن فيها ولكن نجا الغراندوق سرل فلا بدَّ من ان تكون الصلاة للترحيم على الغرقى وللشكر على نجاة الغراندوق او نبدأ بالشكر على نجاتهِ ثم بالترحيم على المئات الذين غرقوا

اولغا — اصحيح ما تقول هل قرأت التلغراف بنفسك

سرجيوس — نعم صحيح ونحن مهما كانت مقاصدنا لا يسعنا الاَّ الحزن على ما جرى لان الذين غرقوا اخواننا ولا ذنب لهم حتى يذهبوا ضحية سوء التدبير وقد اجتمعت بمَير امس فاكد لي ان هذه الحرب لا تنتهي ما دامت البلاد تبني البوارج وترسل الفيالق وان هذه افضل فرصة لنا لمطالبة القيصر بالدستور فاذا سمح لنا بحكومة نيابيَّة فالحكومة تضطرهُ الى ابطال الحرب حالاً او الى عقد الصلح قبلما يتسع الخرق على الراقع ومن رأْي مَير اننا اذا شرعنا في التهييج من الآن لا نستطيع ان نتم عملنا وننال بغيتنا قبل سنة من الزمان

اولغا — الكلام سهل ولكن العمل صعب

فلادمير — ومن اين المال . فان صندوقنا يكاد يفرغ

سرجيوس — قال مَير اننا اذا شرعنا في العمل الآن فهو يضع تحت امرنا مئة الف روبل ومتى نفدت يضع غيرها

اولغا — لم يصدق معنا في المرة الماضية فقُتل اخي الكسي وارسلت هيلانة الى سيبيريا

فلادمير — ليس اللوم عليهِ فقد سلَّم اليَّ اكثر من ستين الف روبل ولكن الدنيا قامت علينا حينئذٍ

اولغا — لم تقم الدنيا علينا ولا قام احد ولكن اتتهُ الاوامر من الذين يدفعون المال ليكف عن الدفع فسافر الى كارلسباد بحجة التداوي وتركنا نحرق اصابعنا

فلادمير — كيفما كان الحال في الماضي فالفرصة الحاضرة لا تفوَّت ولا احد يلومنا الآن على ما نفعل لان الغرض منهُ النفع العام

بطرس — وهل يتوخَّى مَير ما منهُ نفع عام . اليكم عن الغرور والتغرير فان قومهُ لا يطلبون الاَّ نفع انفسهم ولو خربت الدنيا

سرجيوس — اصبت ولكن يتفق احيانًا كثيرة ان ينفع الانسان غيرهُ وهو يطلب نفع نفسهِ

بطرس — انا معك في هذا اما القيام بثورة جديدة فلا فائدة منهُ مالم نضرم نارها في كل المدن الكبيرة

سرجيوس — ما دامت البلاد مستعدة لهذه الثورة فهي تنتشر فيها من نفسها ولا يُطلَب منا الاَّ ان نصب الزيت عليها

اولغا — هل وُضعت الخطة التي يجب السير عليها

فلادمير — قبل وضع الخطة يجب ان نعرف الى اي حدٍّ يتصل استعداد مَير لدفع المال

سرجيوس — رأيت منهُ اندفاعاً شديداً هذه النوبة ولا استغرب اذا كان يعطينا مليون روبل

اولغا — مليون روبل هذا لا يمكن لانهُ لا يملك اكثر من ذلك

فلادمير — اذا اراد وكان لهُ ولاخوانهِ مصلحة فلا يكثر عليهم ان يدفعوا عشرة ملايين

بطرس — كيفما كانت الحال فالوقت الحاضر لا يوافق لتحريك الثورة لان الامة كلها مجروحة ومغتاظة ولكن متى سكن الما قليلاً وطُلبت منها اموال جديدة وجنود جديدة فحينئذٍ نجد من يسمع كلامنا

فوافق الباقون على هذا الرأي وعلى بقاء المخابرة مع ميَر وعلى ان الغرض نفع البلاد لا غير

في طوكيو

اجتمع مجلس النظار وتليت عليهم الاخبار التلغرافية من الاميرالية وقوَّاد الجيوش البرية فقال الجنرال الكونت تارو كتسورا رئيس النظار لم يكن فوزنا حتى الآن اقل مما انتظرنا وقد احسن الاميرال طوغو بوضع الالغام في مدخل البوغاز وهي فكرة صائبة ولو قيل لهُ كم تؤمل منها ما كان امَّل اكثر مما نال لان غرق الاميرال ميكاروف على هذه الصورة لا بدَّ وان يضعف عزائم الروس

فقال الدكتور يوزورو كوبوتا ناظر المعارف أَلم تبدِ روسيا اقل ميل حتى الآن الى عقد الصلح فاجابهُ ناظر الخارجية ولا ينتظر منها ذلك لاسيما وان اسطولها لا يزال قويًّا . وقال الجنرال ساناكي ناظر الحربية وزد على ذلك ان بورت ارثر محصنة اقوى تحصين واذا استطعنا فتحها في شهرين او ثلاثة فيكون السعد خادماً لنا اكثر مما ننتظر وعندي في قلم المخابرات ادلَّة قوية على ان فتحها يكاد يكون ضرباً من المحال اذا لم يقع الشقاق بين قوَّاد حاميتها او لم نوفَّق الى سحق اسطولها ثم نأتيها بمدافع الحصار ونقطع سكة الحديد عنها. واماكن الجيوش البرية حصينة جدًّا فان الروس مستعدون لهذه الحرب من حيث الحصون والمدافع وما اشبه اكثر مما هم مستعدون من حيث عدد الجنود

وقال ناظر المالية لا بدَّ لنا من قرض آخر قريباً ولا صعوبة في عقدهِ على ما يبلغني . فقال ناظر المعارف لقد خصصنا لهذه الحرب الاموال المتوفرة عندنا وهي نحو ٤٠ مليون ين وكل ما يزيد من احتكار التبغ وهو نحو ٦٠ مليون ين واستدنَّا في اوائل فبراير مئة مليون ين فهل اذا استدنا مئة مليون اخرى تكفينا الى نهاية الحرب

فقال ناظر البحرية ان هذا الامر لا يعلمهُ الَّا علاَّم الغيوب لان الفواعل في الحرب كثيرة

جدًّا كما لا يخفى على حضرة الناظر واكثرها غير خاضع لارادتنا ولكننا باذلون غاية جهدنا في انجاز عملنا باسرع ما يمكن

رئيس النظار — لاشبهة في ان رجالنا كلهم قاموا بما يجب عليهم لامبراطورهم وامتهم. ولما ذكر كلمة امبراطور نهض النظار كلهم وقوفًا ثم جلسوا

فقال ناظر الخارجية اصبت وكل سفرائنا يكتبون اليَّ عن اعجاب الدول الاوربية بما فعلناهُ حتى الآن

وبعد محاورة قليلة في هذا الشأن قرَّ قرارهم على عقد القرض باقل ما يمكن من الربا وفوضوا الى ناظر المالية عقدهُ بعد مصادقة مجلس النواب

القاهرة

استير — ابوكِ احسن جدًّا فقومي نخرج الى النزهة

بهية — نعم احسن والحمد لله ويا حبذا لوخرجت امي وبقيت انا عندهُ لانها لم تخرج من البيت منذ عشرة ايام

استير — قولي لها فاني اودها مثل امي تمامًا واظن ان كل احد يودها لانسها وبساطة قلبها

بهية — اصبتِ ويجب ان نشكر الله لان امي وامكِ قريبتان الى القلب جدًّا ولا ادري كيف تقدر البنت ان تفارق امها

استير — آه ما هذا وهل يخطر ببالك ان تفارقي امك ومتى والى واين . انا شاعرة بذلك ولكنكِ لم تخبريني حتى الآن . قومي وتعالي معي واخبريني وانا اخبركِ شيئًا آخر

فقامت بهية وقالت لامها ان استير آتية لتخرج معها الى النزهة وانها هي تفضل ان تبقى مع ابيها وتخرج امها بدلاً منها . فتنهَّدت امها وقالت لها اخرجي انتِ لانك احوج مني الى النزهة وقد ارسلت هانم افندي حرَم راغب باشا تقول انها آتية لزيارتنا فلا بدَّ من بقائي في البيت

فخرجت بهية مع استير ولم تكادا تركبان المركبة حتى قالت استير لبهية هل كتبتْ اليكِ مس برون. فاحمرَّت وجنتا بهية وقالت نعم كتبتْ . كتبتْ مكتوبًا طويلاً ما امهرها في الكتابة

استير — وماذا قالت لكِ عن اخيها

فنظرت بهية اليها ثم اطرقت ولم تقل شيئًا

استير — اتخفين عني يا بهية

بهية — انظري في اي حال نحن امبن لم يقم الاَّ منذ يومين وابي لم يزل على حالهِ وماذا

اقول لكِ صدقيني اني كرهت الدنيا وكرهت الحياة

استير — سينتهي كل شيء على خير ويعود هنري بالسلامة . قالت ذلك باسمةً ثم ضمَّت استير اليها وقالت لها قولي لي ماذا تمَّ بينكما

بهية —. لم يتم شيءٌ ولم يقل كلمةً لابي ولا لامي وقد طلب ان يكاتبني فابيت والظاهر انهُ اخبر اختهُ وهي تكتب لي مع كل بريد وكان كلامها عموميًّا الاَّ في كتابها الاخير فانها قالت لي ان هنري قلق جدًّا وانهُ يود ان يتم شغلهُ ويعود باسرع ما يمكن . وتطلب مني ان اخبرها اين نحن عازمون على تمضية الصيف

استير — اهذا كل ما في مكتوبها

بهية — كلاَّ ولكن هنري نفسهُ اخذ مكتوبها وكتب لي حاشية فيهِ يقول فيها اني منعتهُ من ان يكتب لي ولكنهُ لا يظن ان هذا المنع يتناول ان يكتب لي حاشية في مكتوب اختهِ

استير — وما ذا كتب لكِ

بهية — كتب لي ما جعلني ابكي ساعتين. قالت ذلك وهطلت الدموع من عينيها فضمتها استير الى صدرها وجعلت تقبلها وتقول لها يجب ان تشكري ربكِ لان ابي يقول ان هذا الشاب من احسن الشبان الذين رآهم وابوهُ من الاغنياء اهل الوجاهة وسيرث مقام ابيهِ لانهُ بكرهُ فتصيرين لادي برون

بهية — ولكن اين نحن وهو في ساحة القتال

استير — اذًا هذا هو الذي شغل بالكِ وابكاكِ ولماذا لاتكتبين اليهِ ليرجع حالاً

بهية — قال انهُ سيرجع قريبًا ولكنهُ ختم الحاشية التي كتبها لي بقولهِ ان الحالة لا تخلو من الخطر على حياتهِ لانهُ عازم ان يزور معسكر الروس قبل رجوعهِ ولان الحميات منتشرة هناك الآن وقال انهُ ان رجع سالمًا فهو لي ان قبلتهُ والاَّ فسلامتهُ وعدمها على حدٍّ سوى بالنسبة اليهِ . وقد عقَّبت دورا على حاشية اخيها فقالت انهُ دائم التفكير فيَّ وانهُ اخذ صورتي منها وهي معهُ دائمًا . ومع ذلك اشعر يا استير كأَنَّ بلاطةً على صدري فلقد صدق من قال ان المصائب لا تأْتي فرادى . لقد اخبرتكِ كل شيء فهاتي اخبريني انتِ فان في وجهكِ خبرًا . هل ودَّعكِ امين قبل ذهابهِ الى الاسكندرية وهل ما يقال عن ابن عمكِ صحيح

استير — نعم مرَّ امين علينا وودعني وقد تغير كثيرًا . وموسى اجبناهُ بالرفض لاني لا اميل اليهِ . والحق اقول لكِ اني لا اميل الى احد . احزري من طلبني ايضًا طلبني حليم بك. هو شاب طيب جدًّا ولا بأْس بهِ ولكن اتستسهلين ان تتزوج الواحدة رجلاً لا من شعبها

ولا من ملتها . نعم ان كثيرات يفعلن ذلك ولكن تكون الواحدة منهن مع زوجها كأنها غريبة عنهُ او تضطر الى تغيير عاداتها ومشاربها لكي توافق عاداتهِ وعادات قومهِ ومشاربهم وهذه ليست المعيشة الزوجية التي الفناها في بيوتنا ولا هي المعيشة التي يجب ان تكون ولا اقول ذلك بالنسبة اليكِ والى المستر برون بل بالنسبة اليَّ اذا اقترنت بابن راغب باشا

بهية — ولماذا لا يكون قولكِ بالنسبة اليَّ والى هنري فان عادات قومهِ واطوارهم ابعد عنا من عادات بيت راغب باشا عنكم . أَلا تظنين ان ذلك من جملة الاسباب التي تقلق بالي ولكنني لا اعلم كيف اتغلَّب عليها وتزول من فكري احيانًا كثيرة واظن ان هذا ينطبق على قولهم في العربي عين الحب عمياء (لانهما كانتا تتكلمان باللغة الفرنسوية على جاري عادتهما)

استير — هذا هو الصواب ولو كنت احب حليمًا لاغضيت عن المصاعب التي اراها الآن

بهية — لقد كنت احلم وامني نفسي بانك تكونين لامين وامين يودك كثيرًا ولكنهُ من حين علم مقدار الخسارة التي لحقت اباهُ بسببهِ ضعفت عزائمهُ وصغر في عيني نفسهِ . لعن الله البورصة فانها تميت نفس الشريف وتضعف عزيمتهُ

استير — ان خسارتهُ كبيرة ولكنها طفيفة بالنسبة الى ثروة ابيك وقد دفعها ابوكِ كلها ولم يقل شيئًا

بهية — لم يدفعها ابي بل دفعها ابوكِ عنهُ وحسبها علينا ولكن أَلا تظنين انها اثَّرت في ابي حتى اضعفت صحتهُ وهي وسقطة امين كانتا سبب مرضهِ لا من حيث الخسارة نفسها بل من حيث نوعها فانهُ لو اشتغل شغلاً قانونيًا يرضاهُ ابي ثم خسر بهِ ضعفي ما خسرهُ الآن ما كان تألم من ذلك قدر ما تألم الآن ويخاف ابي ان يبقى امين متعلقًا بشغل البورصة ولكن لا اظن انهُ يكون كذلك لانني اراهُ في اشد الندامة على ما فعل وهو يقول ان عزرا غشهُ وانهُ يستحيل ان تكون خسارتهُ بلغت هذا الحد . او لا تريدين ان اقول شيئًا ضد عزرا

استير — قولي ما شئتِ فاني اعلم خبثهُ واخاف ان يكون قد فعل ما فعل بامين لكي يبعدني عنهُ ولكن لا بدَّ من ان ينال جزاءهُ او كما يقول المثل العربي على الباغي تدور الدوائر

بهية — انا شاعرة بشيء من ذلك فاذًا لاافكر لكِ في عزرا ولاموسى ولا حليم وسترين من امين غير ما تظنين بعد ان ينسى هذه الورطة التي وقع فيها . وكلمة منكِ تنعش فؤادهُ وتشدد عزيمتهُ

فلم تقل استير شيئًا ووصلتا حينئذٍ الى موقف المركبات في سكة الاهرام وسلمتا على كثيرات من اللواتي رأتاهن هناك ثم عادتا ومرتا على بستان الحيوانات ودخلتاهُ ومشتا فيهِ

ولم تعودا الى الموضوع الاول الأَّ بعد رجوعهما حينما ودعت استير بهية فان بهية قالت لها ماذا اقول لامين حين اكتب اليهِ . فقالت استير سلمي عليهِ وقولي لهُ ان يعتني بصحتهِ ولا يبعد ان ننزل نحن الى الرمل ايضاً بعد نحو عشرة ايام وسنتكلم في هذا الموضوع في فرصة أُخرى ثم تعانقتا وقالت بهية لاستير تعالي ادخلي معي فانني اظن ان ام حليمة عندنا وهذه مركبتها

فقالت استير قد فات الوقت الآن والظاهر ان حليمة قامت حتى صار يسهل على امها ان تفارقها مع انهُ بلغني امس انها نكست فادخلي الآن وسازورك غداً فتخبرينني بكل ما تقولهُ لكِ

ودخلت بهية وسلمت على ام حليمة فاعتنقتها هذه عنها وعن ابنتها وقالت لها ان ابنتها عادت الى سريرها ويقول الطبيب انهُ يخشى من ان شظية من العظم بقيت في خاصرتها وانهُ ربما يضطرُّ ان يعمل لها عملية اخرى لان الحمَّى عاودتها من اول امس

فسألتها مدام واصف بك عن نجم الدين وما فعلوا بهِ . فقالت ان اهلهُ ادَّعوا انهُ مجنون لكي ينجوهُ من العقاب وهو مسجون الآن وجاء محامٍ ايطالي مشهور يقال انهُ درس عند عالم ايطالي يدَّعي ان المجرمين كلهم مجانين فألَّف رسالة يزعم فيها ان نجم الدين مجنون وان حليمة سبب جنونهِ فكأَنهُ يلقي اللوم علينا . اراَيتِ خبص هؤُلاء المحامين . اما الباشا فيقول ان لا بدَّ من تأْديبهِ حتى يكون عبرةً لغيرهِ . وبعد حديث من هذا القبيل قامت وودَّعت ودَّعت بهية لتأْتي من الصباح وترى حليمة

الفصل السادس والعشرون

بين الحاضرة والآخرة

— قلت لكِ يا هانم لا يخلّص ستي حليمة الأَّ الزار مالي ومال الحكما أَهو بقالهم شهرين بعالجوا فيها عملوا ايه

— اتظنين يا فاطمه انهُ يمكننا ان نعمل الزار هنا في السراي من غير ما يدري الباشا

— لا ما يمكنشي لان الزار بدو اربع وعشرين ساعه ودق وزيطه ولكن انا كلمت شيخة الزار حتى نعملوا في بيتي لستي حليمة والشيخة تجي الليلة وتبخر ستي حليمة ونكتفي هنا بالبخور والليله فرح في بيت حقي باشا وان راح الباشا لهناك ما يرجعش قبل نصف الليل ونحن ساعة واحدة تكفينا وبالكثير ساعتين

فجلست ام حليمة تفكر في هذا الامر وهي تدخّن سيكارة دقيقة ثم نهضت ودخلت غرفة

حليمة وجسَّت نبضها وجبينها وجلست الى جانب سريرها وفاتحتها بموضوع الزار . وكانت قوى حليمة قد نهكت من العملية الاخيرة وتواصل الحمى وضعفت ارادتها جدًّا فالامر الذي كانت ترفضهُ اولاً رفضاً باتًّا ضعفت عن رفضهِ الآن فقالت لامها افعلي ما بدالكِ اما انا فلااستطيع المشي ولا الوقوف

فقالت لها امها ان فاطمة تقول انهم هم يعملون الزار في بيتها ويكتفون هنا بتبخيرك

فتململت حليمة وقالت لامها ان تخبر اباها واخاها على الاقل ان لم تشأ ان تخبر الطبيب. وكانت تتكلم بالتركية بصوت متقطع ولما رأت ان امها بقيت صامتة ولم تتكلم قالت لها ان تفعل ما تشاء بشرط ان لايجبروها على القيام والمشي ولا يرفعوا اصواتهم كثيراً . وخرجت امها وتداولت مع فاطمة مدة وقرَّ القرار علي اخبار شيخة الزار لتحضر تلك الليلة وتعمل ابسط ما يمكن ان يعمل

وكانت افكار حليمة سريعة التنقُّل من موضوع الى موضوع فراجعت ماضي حياتها من حين كانت طفلة وتردَّد في بالها ما حفظتهُ غيباً من الآيات والاشعار العربية والتركية والفرنسوية واحاديثها مع امها وابيها واخيها لان راغب باشا لم يكن يهمل الكلام مع اولادهِ وقص القصص عليهم . وكررت ايضاً ما كانت تسمعهُ من معلمتها الفرنسوية عن السماء وجهنم والثواب والعقاب فقالت الى اين امضي بعد الموت وحاولت ان تنظر الى ما وراء القبر فلم ترَ الاَّ ظلاماً دامساً ثم قالت ان كل المعلمين والمهذبين يأمروننا بعمل الصلاح وانا لم اضرَّ احداً ولا قصدت ضرر احد فالى اين اذهب بعد الموت وكيف يكون حال امي بعدي لا بدَّ من انها تنساني كما نسيت اختي توحيدة كم بكت عليها وكم ناحت نعم انهُ مضى علي ذلك خمس سنوات الآن ولو بقيت توحيدة لكانت صبيَّة . كان عمرها تسع سنوات لما ماتت . يا حبيبتي كانت تحبني اكثر من كل احد وقد فارقتني منذ خمس سنوات . فراق طويل جدًّا ولكنني لا انساها ابداً وسأذهب اليها نعم سأذهب اليها سريعاً وهي الآن في انتظاري . ما اعظم سروري بها حين اراها . اظنها صارت طولي الآن ولكن هل يطول الجسم بعد الموت وهل ينمو كما تنمو اجسام الاحياء . ان اجسام المصريين القدماء التي في الانتكخانة لم تزل على حالها الكبير كبير والصغير صغير حتى الطفل لم يزل طفلاً وقد بقيت محفوظة لانها محنطة ولو دفنت في الارض كما ندفن نحن لانحلَّت وصارت تراباً فاين التقي بكِ يا توحيدة يا عزيزتي بعد ان صرتِ تراباً ورماداً وهل اصير انا تراباً مثلكِ اصير تراباً ولا يبقى شيءٌ من جسمي وشعري . كان لي جسم اما الآن فصرت جلداً وعظماً وسيبلى كلهُ . ما افرغ هذه الحياة التي نهايتها الموت والبلى

مَن ارى بعد الموت ومَن اعرف ومَن انتظر ومَن ينتظرني . لم يعلّمني ابي شيئًا ولا علّمتني امي عمّا يكون بعد الموت . نعم ان المادموازل كانت تقول لي اننا نجتمع في السماء ونرتل مع الابرار ونمجد الله ولكن كيف نرتل لله وكيف نمجده ونحن من غير اجسام . اه يا امي ما هذا الصداع . كيف نمجده من غير اجسام الفم يبلى واللسان يبلى فكيف نتكلم ولا لسان لنا ولا فم ولكن ها انا انكلم الآن افتكر فكرًا ولا احرك لساني ولا فمي . اه نعم نعم نستطيع ان نتكلم من غير لسان نتكلم بالفكر وهذا الفكر يبقى ولا يموت فان الجسم ينام في الليل والفكر يبقى فقد يبقى الفكر حيًّا بعد موت الجسم . قد يكون ذلك صحيحًا وقد لا يكون يا حبذا لو اتى الشيخ احمد الى هنا فانهُ يعلم كل شيء وكنت اسألهُ وحليم يعلم ايضًا فسأسألهُ متى حضر . اين هو الآن مسكين حليم كنت اريد ان يقترن باستير . هل ارى توحيدة بعد الموت نعم اراها بدون جسمي اراها هوذا انا اراها الآن اراها بعين العقل ولكن هل يبقى العقل من غير جسد ان كان عقلي يبقى فعقلها يبقى فلماذا لا تكلمني مطلقًا حلمت بها مرتين او ثلاثًا في السنة الاولى ثم لم اعد احلم بها اين انتِ يا توحيده يا حبيبتي كلميني . نعم ساراكِ ولا اعلم كيف اراكِ ولكنني ساراكِ اه يا ربي ما هذا الصداع اه يا امي يا راسي

ثم فتحت عينيها فرأت امها واقفة تنظر اليها والممرضة تروّح لها بمروحة فتبسّمت لهما وقالت لامها اتعلمين مع مَن كنت اتكلم الآن كنت اتكلم مع توحيدة كنت افتكر فيها وقد رأيتها وكلمتها ولكنها لم تكلمني . فجالت الدموع في عيني امها وادارت وجهها ومشت الى مقعد جلست عليهِ وقد تشاءمت من ذلك ودخل راغب باشا حينئذٍ ورآها على تلك الحال فاوجس شرًّا ودنا من ابنتهِ وقبَّل جبينها فتبسمت وقالت لهُ اين حليم فقد مضي من الصباح وما عدت اراهُ . فاجابها انهُ سيأتي الآن وقد ذهب لمساعدة بيت حقي باشا في مهام العرس لان سنيّة ستتأهل هذه الليلة وهي وامها تسلمان عليكِ وقد اسفتا جدًّا لانكِ لا تستطيعين ان تحضري الزفّة

ودار الى حيث تضع الممرضة قائمة الحرارة والنبض فنظر فيها وجسّ نبض حليمة ومسح العرق عن جبينها ثم ادنى كرسيًّا من سريرها وجلس قرب رأسها . وقامت امها وخرجت وهي لا تكاد تستطيع الوقوف لشدة ما حلّ بها ومضت الى غرفتها وقد تذكرت الجرح القديم وكأنها رأت ان حليمة ستتبع اختها ففاضت الدموع من عينيها واستسلمت للبكاء والنوح ونظرها الجواري كذلك نخفن من الدنو منها لان مهابتها كانت شديدة في نفوسهنّ

واتى الطبيب حينئذٍ واكثر من وضع اكياس الثلج على رأس حليمة ساعة زمانية فاستراحت كثيرًا واطمأن بال ذويها . واتت شيخة الزار في المساء وبخرتها فلم تقلقها وارادت الممرضة ان

تمنعها اولاً ثم لما علمت ان ليس مرادها سوى اطلاق البخور ظنت انهُ فرض ديني فكفّت عن منعها لاسيما وانها كانت تعلم ان اطلاق البخور يفيد ولا يضر لانهُ مميت للمكروبات ومطهر للفساد. وقد تكفّلت الشيخة انها تصنع الزار في بيت آخر ومع ذلك تصل الفائدة منهُ الى حليمة على خلاف العادة المتبعة لان حليمة ابت ان يعمل الزار في غرفتها ولم تكن امها تجرأ على عمله ولا كانت واثقة ان منهُ فائدة

ومرّت فاطمة على بيوت عشر من النساء واخبرتهنَّ ان شيخة الزار عازمة ان تعمل الزار في بيتها من اجل حليمة بنت راغب باشا فاعترضن عليها وقلنَ انهُ لا ينفع ما لم تركب حليمة نفسها على خروف الزار فقالت فاطمة بل ينفع وانها هي تقوم مقامها وقد اكّدت لها الشيخة انهُ ينفع كما لو كانت حليمة نفسها الراكبة اذا وضعت في بالها ان الزار عُمل لاجلها . وان ام حليمة اعطتها مئة جنيه لتعمل الزار بها. فقمن من الصباح التالي واخذت كل واحدة منهنَّ ملابسها الغريبة التي تلبسها وقت زفة الزار الواحدة لباس رجل صعيدي والاخرى لباس مغربي والاخرى لباس سوداني وهلمَّ جرًّا واتين الى بيت فاطمة واتت الشيخة فاعطتها فاطمة اجرة عملها عشرة جنيهات واعطتها مال المخالفة لئلا يهتدي البوليس اليها فيكتبها في المخالفات ووزعت على كل من الباقيات خمسة جنيهات ثم لبسن ثياب الزار الغريبة واتين بخروف البسنهُ شالاً من الكشمير اتت بهِ فاطمة من بيت راغب باشا واوقدن الشموع واطلقن البخور وسألن الشيخ الذي على فاطمة عمَّا يريد ان تلبس فاخرجت لسانها من فيها وقالت انها تريد ان تلبس جلد نمر وعشرين عقدًا من الفضة والخرز المذهب وكانت قد اعدّت ذلك فالبسنها اياهُ وابتدأت الزفة بنقر الدفوف والاكثار من اطلاق البخور والغناء والزئاط واركبن فاطمة على الخروف وطفن بها في جوانب الغرفة نحو ساعتين من الزمان ثم ذبحن الخروف وغسلن ايديهن بدمهِ ومسحنَ بهِ وجوههنَّ واخذهُ طبَّاخ فسلخهُ وطبخهُ لهنَّ فاكلنَ منهُ الظهر والمساء وشربن السوبيا وهي نقاعة الارز ومسحوق القرفة وبقين في غناء ورقص ونقر على الدفوف واطلاق للبخور الليل كلهُ الى ان اصبح الصباح وقد نهكت قواهنَّ وارتمين على الارض لا يستطعنَ الحراك والشيخة تنادي الشيخ الحالّ على فاطمة وتأمرهُ بتركها وهو يجيب احيانًا بالتهكم عليها واحيانًا بالانقياد لها

هذا ما كان في بيت فاطمة اما حليمة فاصبحت وقد ارتفعت حرارتها درجة عما كانت في الصباح السابق فقلقت الممرضة واستدعت الطبيب فوقف يهزّ رأسهُ واستدعى جمعية الاطباء والجراحين فحكموا بوجوب العملية لنزع شظية العظم وما يمكن ان يكون حولها من الصديد

اسكار الثاني ملك اسوج ونروج